إسماعيل كاداريه

الجسر

8.4.2017
@ketab_n
Follow Me

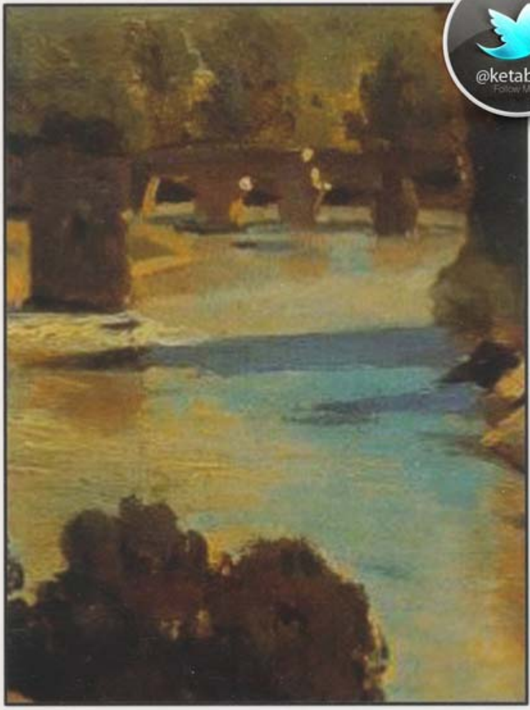

ترجمة

د. عفيف دمشقيّة

منشورات الجمل

رواية

إسماعيل كاداريه

الجسر

رواية

ترجمة

د. عفيف دمشقيّة

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

إسماعيل كاداريه: **الجسر**

Twitter: @ketab_n

إسماعيل كاداريه، الجسر (رواية) ترجمة: د. عفيف دمشقيّة، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٦
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ - بيروت - لبنان

Ismail Kadare: Le Pont aux trois Arches
©1993, Librairie Arthème Fayard

©Al-Kamel Verlag 2016
Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

(١)

لمّا كُنت أعرف، أنا الرّاهب «جون»، ابن «جورج أوكشاما»، أنَّه لا يُعْثَر في لغتنا على أيّ كتابة عن جِسْر نهر الـ«أويان» اللّعين، ونظراً إلى أنَّه لا تزال تُنْشَر بصدده ـ عِلاوة على ذلك ـ أساطير وشائعات لا أساس لها من الصحّة، فقد قرّرتُ ـ الآن وقد أُنْجِز بناؤه، بل وقد رُوي مرّتين بالدّم، عند أُسُسِه وفي أعلاه ـ أن أكتب قصّته.

وإذ كنت قد خرجت للتنزّه على ضفّة النّهر وفي وقت متأخّر من مساء الأحد الماضي فقد رأيت «جيلوش» الأبله يمرّ فوق الجِسْر. وكان يضحك وحده ويقهقه ويقوم بحركات كالتي يؤدّيها معتوه. وكان خيال أعضائه يتحرّك فوق مَعْبَر الجِسْر وينسدل على امتداد العُمُد حتّى مستوى الماء. وأخذت أجهد نفسي في تخيُّل الكيفيّة التي انطبعت بها في ذهنه المختلّ الأحداثُ القريبة العهد، وأقول في سرّي إنَّ النّاس يخطئون إذ يضحكون عندما يرونه يذهب ويجيء وهو يتمتم ويحرّك بشكل متقطّع قبضتيْه المضمومتيْن أمامه مُتوهِّماً أنّه يمسك بالزّمام. والحقُّ أنّ ما يظنّ النّاس أنَّهم يعرفونه عن هذا الجِسْر ليس أقلّ بلبلةً ممّا هو مُتصوَّر في خاطِرِ مُختلّ.

وسأجهدُ، رجاءَ منعِ أشدِّ الأمورِ لامعقوليّةً من أن تُقال في لغات «البلقان» الإحدى عشرة، في أن أكتب الحقيقةَ كاملةً عن هذا الجِسْر، وبعبارة أخرى كلَّ ما في الظّاهر من خطأ وفي المَخْفِيِّ من صواب،

Twitter: @ketab_n

وفي أن أذكُر الوقائعَ اليوميّة المتعلّقة به، وهي تُماثل حِجارته ابتذالاً، والمصائبَ الكبيرة التي يعادل عَدَدُها تقريباً عَدَدَ عقوده.

تنشر القوافل في الوقت الحاضر خلال الأرض البلقانيّة الشّاسعة أسطورة التضحية التي تشيع على أنَّها جرت عند أسفل الجِسْر. ونادرون هم الذين يعرفون أنَّها لم تكن تضحيةً مُهداةً إلى آلهة الماء، بل جريمة عاديّة سوف أفضحها في الوقت الذي أفضح فيه وقائع أخرى لحساب أعوامنا الألف. أقول أعوامنا الألف لأنَّ هذه الأسطورة هي من الأساطير التي تُعمّر أكثر من ألف عام. إنَّها تبدأ بالموت لتنتهي بالموت، ومن المعلوم أنَّ الكلمات والأصوات المُقَوْلَبة من عجينة الموت هي، من بين جميع الأشياء، أقلُّها خوفاً منه.

وعليه، فإنَّني أسرع إلى كتابة هذا التّأريخ لأنَّ الأوقات التي نعيشها أوقات مضطربة، والمستقبل أشدّ إظلاماً ممّا كان في أيّ يوم. وممّا لا ريب فيه أنَّ الأيّام هي الآن، بعد أحداث الجِسْر الفظيعة، أهدأ قليلاً، وأنَّ النّاس هم أكثر وداعةً، غير أنَّ صورة مُفجِعة أخرى ترتسم في الأفق: «الدولة» التركيّة. فظلال مآذنها تمتدّ ببطء حتّى هذه اللّحظة.

إنَّه لسلام مشؤوم، بل أكثر شؤماً من كلّ حرب. فمنذ قرون كنّا نتاخم أرض «الإغريق» القديمة، وها نحن أولاءِ نجد أنفسنا فجأةً من غير أن نشعر، وخلسةً كما في كابوس، وقد حاذينا ذاتَ صباحٍ إمبراطوريّة «العثمانيين».

المآذن تنتصب في كلّ مكان وكأنَّها غابة مُظلمة. وإنّي لأستشعر

Twitter: @ketab_n

أنَّ «أربيريا»[1] لن تلبث أن ترى مصيرها وقد تغيّر. ولا سيّما بعد الذي حدث هذا الشّتاء، عندما أُريق دمٌ للمرّة الثانية على الجِسْر الذي لم يمرّ وقت طويل على إنجازه، دمٌ آسيويّ هذه المرّة. بيد أنّي سأعالج هذا كلّه في الموضع المخصّص له من تأريخي.

* * *

(١) تسمية كانت تُطلق قديماً على (ألبانيا). [حاشية من المترجم إلى اللّغة الفرنسيّة]، (المترجم).

Twitter: @ketab_n

(٢)

في بداية شهر آذار (مارس) ١٣٧٧م، على الضفّة اليمنى لنهر الـ «أُويان» اللّعين، وعلى أقلّ من خمسين خطوة من الأوتاد المغروزة إلى منتصفها في الأرض والمزوَّدة بمعاليق من الحديد تُربط بها العبّارة طَوال اللّيل، أُصيب عابرٌ لم يكن أحد من أهل المنطقة يعرفه، بنوبة صَرْع. وقد روى ملّاح العبّارة، وكان شاهداً على ما حدث، أنَّ الرّجل ذا الأطمار، وكانت هيأته تجمع بين سَحنة قدّيس وسَحنة مجنون، هام برهة فوق الحصباء بين رصيف الرّكوب والمكان الذي يجتاز المرء منه النّهر صيفاً على هواه، وأطلق بغتةً صراخاً وكأنَّه ذُبح ثمَّ سقط مُكِبّاً على وجهه في الوحل.

كان ذلك الموضع من الضفّة هو المكان الذي يستقلّ النّاس والماشية منه العبّارة أو ينزلون منها، بيد أنَّ ذلك لم يكن يعني أنّه ليس مكاناً هادئاً لم يسبق أن كان مسرحاً لأحداث خارقة للمألوف. وقد حدث بعضها هنا بالطّبع كما في كلّ مكان يمرّ منه الناس، ولا سيّما أنَّ الطّريق القديمة الطويلة بحيث لا يُعرف من أين أتت، كان النّهر يقطعها فجأة في هذا الموضع. وعلى كلّ حال فقد كانت الأحداث المشهودة نادرة فيه. وكان النّاس المحتشدون لعبور مجرى الماء ينتظرون هناك في العادة زمناً طويلاً، متسربلين في المشمّعات السّوداء، أو المعاطف المصنوعة من جلد الماعز عندما يكون الجوّ

Twitter: @ketab_n

رديئاً. وكانوا يتأمّلون بصمت، وهم يقطرون ماءً، مياه النّهر الكدِرة السّمراء المثيرة للقلق. ولم تكن جلاجل خيلهم إلى جانبهم تُصدِر غير رنين ضعيف، وكان الأطفال يخفضون أصواتهم؛ وعلى العكس من ذلك فقد كان الكرْب يتضاعف لدى ظهور العبّارة بقائدها المُقَرْفِص.

كان الفضاء المجاور شبه مقفر، فقد كانت الضفّة المُرْمَلة تارَة والمُوحِلة طوراً تمتدّ على مدى البصر مزروعة بأَجَمات الخيزران والبلّان. ولم يكن يُلمح في الجوار أيّ مسكن، بل لم تكن جُدُر دَيْرنا تُرى؛ وكان النُّزُل العتيق يقوم على بُعد نحو ألف خطوة من هناك، فوق حافَة الطريق.

وكانت تنتصب بالقرب من الأوتاد التي تُربط إليها العبّارة طَوال اللّيل لافتةٌ من الصّفيح مكتوب عليها بحروف ملتوية الكلمات «عبّارات وأطواف». وقد مضت عدّة سنوات على زرع مثل هذه اللّافتات في كلّ مكان تقريباً، لا في ممتلكات سيّدنا الكونت «سترس دي جيكا»، أنو «سترس جيكوندي»، وحسبُ، وإنّما أبعد قليلاً أيضاً وراء حدود «دولة أربيريا»، في مناطق «البلقان» الأخرى. وكان ذلك العمل قد بدأ قبل عشر سنوات، خلال شتاء ١٣٦٧م، عندما اشتُريتْ جميع عبّارات الأنهار والخُلجان والبحريات، اشتراها رجل عجيب يعلم الله من أين قدِم ولم يكن أحد يعرف اسمه، بل لقد كان يُقال إنَّه لم يكن له اسم غير اسم «عبّارات وأطواف». هذا الاسم الذي نبت الآن في كلّ مكان مثل نبتة تنمو في جميع الأمكنة الرّطبة. وكان يملك، على ما يبدو، اللّافتة نفسها، بالكلمات نفسها، في المنزل الكبير الذي كان يدير أعماله منه، كما كان يوقّع إيصالاته وعقوده بالكلمات «عبّارات وأطواف»، وكأنّما كان ذلك خَتْماً شبيهاً بخَتْم سيّدنا الذي نُقش عليه أسد يمسك في شدقه بِمِشْعل مُلْتهِب.

Twitter: @ketab_n

منذ أن اشترى هذا السيّد الجديد جميع العبّارات والأطواف أصبح كلّ المُعَدّين وأصحاب المراكب من مُستخدَميه، باستثناءات نادرة على وجه التّقريب، من مثل المُعدّي المتمرّد في شركة «ساقية الأَرومات» الذي فضّل الموت جوعاً على قبض راتبه من يد ذلك اليهودي اللّعين. وفي نهاية شتاء ١٣٦٧م ارتفعت على ضفّتنا أيضاً تلك اللّافتة التي كانت تحمل كذلك أجور العبور: «النّاس: نصف غرش؛ الخيول: غرش».

وفي زمن الجفاف، عندما كان نهر «الأُويان» ينخفض ويرقّ، كان العابرون يقطعون النّهر على هواهم اقتصاداً للنفقة، وكان ذلك يحدث حتّى عندما يكونون مُحمَّلين بالأكياس. إلّا أنَّ غير واحد غرقوا وقد خدعتهم المياه لأنَّ النّهر لم يكن يحمل عبثاً اسم نهر «الأُويان» اللّعين. ولا تزال تُرى على الضفّتين صُلبان تخليديّة شوّهها الزمن. ويقال إنَّ أسياد «عبّارات وأطواف» قد عُنُوا بزرع هذه الصُلبان على الضفّة لتذكير العابرين الآخرين بما تكلّفه محاولة عبور النّهر من دون عَوْنهم.

لقد اشترت «عبّارات وأطواف» بالإضافة إلى العبّارة رصيف الرّكوب العتيق، وهو أثر من آثار العهد الرّوماني، وأَصلح حدّادوها معاليقه لكي يتمكّن المُعدّي من ربط عبّارته بمزيد من اليُسر، ولا سيّما في الشتاء.

كانت العبّارة تدرّ عائدات وفيرة. فلم يكن يستعملها في الواقع الركّاب الفُرادى وحدهم، وفي بعض الأحيان بصحبة مواشيهم، بل تستخدمها كذلك القوافل التي تحمل الملح من الملّاحات الكبرى الواقعة على السّاحل عبر «البلقان»، ولا سيّما في العربات التي تموّن قاعدة «أوريكوم» البحريّة البيزنطيّة القريبة من «لورييه». وقد أُبرمت

Twitter: @ketab_n

عقود مُفصَّلة بين سيّدنا و«عبّارات وأطواف» لتقاسم الأرباح الناتجة عن هذه الخدمة. والحقّ، وهذا أمر نادر تحت هذه السّماء، أنّه لم يُسمع قطّ عن أدنى نزاع بينهما. وكان يبدو أنَّ «عبّارات وأطواف» كانت مستقيمة جدّاً في الأعمال.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٣)

كان حشد من الوجوه المعروفة والمجهولة قد تجمّع حول الرّجل المصاب بالصّرْع. وكان يرتجف ويُزبد وكأنَّه قد سعى إلى رمي أطرافه من ناحية، بعيداً عن نهر «الأويان» اللعين، ورأسه من الناحية الأخرى. وقد حاول أحدهم جاهداً مرّتين أو ثلاثاً أن يمسك بقوّة برأسه كيلا يرطمه بالحجارة. غير أنَّه كان من المستحيل تجميد هذا الرّأس نصف الأصلع الذي كان يتململ بعنف رهيب.

وقال أحدهم وسط الجمع الصّغير: «إنَّه لنذير آتٍ من السّماوات العُلى». وكان ذلكم رجلاً نحيلاً ردَّ فيما بعدُ حين سئل عن مهنته بأنَّه قارئ طالعٍ متجوِّلٌ.

«وأيّة أمارة ينبغي أن تُرى هنا في رأيك؟».

نظر الرّجل مليّاً مُعاقباً بعينيه الخامدتين بين المنكود المرتجف وسطح المياه. وتمتم:

«أجل إنَّه نذير من السّماوات العُلى. إنَّ اختلاجاته تنتقل إلى الماء والماء ينقل إليه ارتعاشاته. يا إلهي! إنّهما متفاهمان.».

ونظر النّاس المجتمعون من حوله بعضهم إلى بعض. وبدأ أنَّ الرّجل المُلْقى على الأرض قد هدأ قليلاً، وقد نجح أحدهم في إبقاء رأسه بلا حراك.

وسأل آخر:

Twitter: @ketab_n

«وماذا يكون ذلك النذير في نظرك؟».

وأبقى الرّجل الذي قال إنَّه قارئ طالع عينيْه نصف مُغْمَضَتيْن لحظةً. «إنَّها آية من العليّ القدير تُنبئنا بأنَّه ينبغي بناء جِسْر هنا، على هذه المياه!

- جِسْر؟

- ألم تَرَوْا كيف كانت يداه تمتدّان باستمرار نحو النّهر، في حين كان جسده يرتعد كما يرتعد جِسْر لدى عبور عربة ضخمة؟».

قال أحدهم:

«برّرْزْ... ما أشدّ البرد!».

كان المريض قد هدأ الآن. وأخذ الاختلاج الذي في أطرافه التي كانت كأنَّها مفكّكة يزداد ندرة. وانحنى فوقه أحد الركّاب المنتظِرين ومسح الزّبد المحيط بشفتيه. وكانت نظرته حزينة وغائمة.

قال قارئ الطّالع: «إنَّه مرض مُقدَّس. وهو يحمل على الدّوام نذيراً. وقد كان من الممكن أن يكون طالع شؤم، وأن يكشف عن هزّة أرضيّة مثلاً، إلَّا أنَّه هذه المرّة، تبارك الله، كان طالع سَعْد».

وأخذ النّاس يقولون:

«جِسْر... إنَّه لأمر غريب. ينبغي نقل الأمر إلى سيّدنا». «ومن هو سيّد هذا البلد؟» «هو الكونت «سترس دي جيكا»، أطال الله عمره! ولكن أنت، أتكون غريباً فلا تعرف ذلك؟» «أجل، غريب يا أخي، وكنت أنتظر العبّارة عندما رأيت هذا المسكين...» «يجب إعلام سيّدنا بلا تأخير... جِسْر، إحِمْ...» «أنا ذاهب أيّها النّاس الطيّبون». «في طريق السّلامة، طريق السّلامة!».

* * *

Twitter: @ketab_n

(٤)

بعد ثلاثة أسابيع استُدعيتُ على عجل لزيارة الكونت. ولم يكن قصره ذو الأسوار المزوَّدة بأبراج صغيرة يبعُد أكثر من مسيرة ساعتين. وعندما وصلت إلى بابه أدخلوني واقتادوني إلى قاعة الأسلحة التي كان سيّدنا يستقبل فيها عادةً الأمراء والكونتات الذين كانوا يمرّون بأراضيه.

وكان هناك الكونت نفسه وأحد أمناء سرّه وأسقفنا واثنان من الزائرين لم أكن أعرفهما، وكانا يلبسان ملابس ضيّقة ربّما كانت دارجة في مكانٍ ما.

ولقد بدا الكونت متوتّراً وعيناه محمرّتان من الأرق. وتذكّرت أنَّ ابنته كانت مريضة في الايّام الأخيرة. ولا بدّ أنَّ المجهولَيْن كانا طبيبَيْن قَدِما من حيث يعلم الله. وما إن دخلت حتّى قال لي:

«لست أقدر على التفاهم معهما. وأنت الذي يعرف عدّة لغات قد يكون في وسعك معاونتنا».

كان القادمان الجديدان يتكلّمان لغة جهنميّة حقّاً. فما كانت أُذُناي قد سمعتا قطّ مثل هذا الحَساء من الأصوات. ونجحت رويداً رويداً في استخلاص بضعة خيوط من تلك الكُبّة المتشابكة. ولاحظت أنَّ الأرقام كانت تقال باللّاتينيّة، والأفعال بشكل عام باليونانيّة أو العاميّة

Twitter: @ketab_n

السلاتيّة، والأسماء بالألبانيّة وأحياناً بالألمانيّة. وأمّا الصّفات فلم يكن هذان الزائران ليستعملاها.

بدأت أتكهّن بمشقّة ما الذي كانا يريدان قوله. فلقد كان سيّدهما أرسلهما إلى سيّدنا في مهمّة خاصّة. وكانا قد سمعا ما يُقال عن الآية الصادرة عن العليّ القدير بشأن بناء جِسْر فوق نهر الـ «أُويان» اللّعين، وكانا هما ـ أيْ سيّدهما ـ مستعدّيْن للقيام بهذه المهمّة إذا أَذِن لهما الكونت بذلك. وباختصار فإنّهما كانا يتعهّدان بأن يبنيا خلال عاميْن جِسراً فوق نهر الـ «أُويان» اللّعين، وأن يشتريا الأرض التي سيقوم عليها ويدفعا إلى سيّدنا ضريبة سنويّة يقتطعانها من أثمان العبور. وإذا وافق الكونت على ذلك سُجِّلت هذه البنود في عقد مستوفي الشرط مُوقَّع من الفريقين ومختوم بخاتميْهما.

وتوقّفا لحظة لإطلاعنا على خاتم أخرجه أحدهما من أحد جيوب ثوبه الغريب. وقالا كلاهما بصوت واحد تقريباً:

«ينبغي أن تُنفَّذ وصيّة العَلِيّ القدير».

كان الكونت يتفحّص على التوالي بعينيْه الكليلتيْن أمينَ سرِّه والأسقف. غير أنَّ نظرتهما كانت خرساء بإزاء هذا اللّغز.

وسأل سيّدنا: «ومن يكون سيّدكما؟».

وأطلقا خليطاً من الكلمات بلغتهما غير المفهومة والمثيرة للحنق، وكانت الكُبّة من التشابك في هذه المرّة بحيث اقتضاني فكّ تشابكها زمناً طويلاً. فقد شرحا أن سيّدهما لم يكن باروناً ولا دُوقاً ولا أميراً وإنّما كان رجلاً ثريّاً اشترى حديثاً مناجم القَطِران العتيقة المهجورة منذ عهد «الرومان» بالإضافة إلى جزءٍ كبير من الطريق، القديمة هي الأخرى قِدَمَ تلك المناجم، بقصد تعبيدها. وقالا إنّه لم يكن يملك لقباً ولكنّه يملك مالاً.

Twitter: @ketab_n

كانا يتوقّفان عن الحديث باستمرار، ثمَّ انتهى بهما الأمر إلى أن سجّلا على قُصاصة ورق المبلغ الذي يقدّمانه مقابل الأرض وقيمة الضريبة السنويّة التي كانا مستعدّين لدفعها مقابل استثمار الجِسْر.

وقال أحدهما: «المهمّ مع ذلك هو التمسُّك ببلاغ العليّ القدير».

كانت المبالغ المسجَّلة على الورقة خياليّة، وكانت ماليّة سيّدنا هشّة بشكلٍ لافتٍ منذ بعض الوقت. وكانت ابنته تعاني من جهة ثانية منذ شهريْن مرضاً لم يتوصّل الأطباء إلى اكتشافه.

تبادل سيّدنا والأسقف النّظرات مرّات كثيرة. وكان من السّهل التكهّن بأنَّ الأوَّل كان يفكّر على التوالي في خزينته الفارغة وفي ابنته المريضة، وكان الجِسْر الذي يقترح عليه هذان الغريبان بناءه بمثابة علاج لذَيْنك المرضيْن في وقت معاً. فلسوف يجني منه أموالاً ويستجلب رضى العليّ القدير عنه بتحقيق الوصيّة التي بلّغه إيّاها بوساطة ذلك المنكود فوق ضفّة النّهر.

لم يفكّر سيّدنا أكثر من ذلك. وقال إنّه يوافق وأصدر أمراً إلى أمين سرّه بتحرير العقد باللّاتينيّة والألبانيّة. ثمَّ دعانا جميعاً إلى الغداء. ولم يسبق لي قطّ أن تناولت وجبة طعام في حياتي أشدّ إرهاقاً من هذه، نظراً لما لقيته من عذاب متمثِّل في ضرورة التكهّن في كلّ لحظة بمعاني كلماتها التي كان فكّ تشابكها يزداد استعصاء.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٥)

كان من نكد طالعي أنَّه توجّب عليّ أن أرافقهما عصراً إلى ضفّة نهر الـ «أُويان» اللّعين. وكان المساء قد حلّ عندما ركبا العبّارة للرّحيل. ولقد اتّبعتهما نظراتي برهة من فوق الضفّة. وكانا قد انخرطا في نقاش نشِط وأخذت أيديهما تلوّح بالإشارات وأصابعهما تُعيِّن تارة نقطة وطوراً أخرى من صفحة المياه. وكان الجوّ بارداً. وأسرع الغسق بالهبوط، ومن بعيد كانا يرسمان فوق العبّارة بعض الخطوط السّوداء التي تُشاكل كلامهما غموضاً واستغلاقاً على الفَهْم. وإذ كنت أراهما يبتعدان فقد تغلغل إلى ذهني بغتة تغلغُلَ جُعَلٍ أسود الشكُّ بأنَّ صريع الضفّة وقارئ الطّالع المتجوّل الذي وُجد إلى جانبه وهذين المستخدَميْن ذَوَيِ الملابس الضيِّقة كانوا في خدمة السيّد نفسه ويعملون لحسابه.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٦)

لم يلبث أن انتشر نبأ بناء جِسْر فوق نهر الـ «أُويان» اللّعين، كما لا بُدّ أن يُتوقَّع. ولقد بُنيت بالطبع جسور في كل مكان تقريباً، غير أنَّ أيّاً منها لم يكن قد أثار، على ما يذكر النّاس، مثل هذا القدر من الصّخب. فقد بُنيت من غير أن يُحكى عنها أو يكاد، وسط ضجّة مخنوقة صادرة عن المطارق الضّاربة في الخشب مذكِّرةٍ بنقيق الضّفادع المجاوِرة الرّتيب. ثمَّ إنَّها كانت ما إن ينتهي بناؤها حتّى يتمّ استخدامها على الدّوام من غير كثير ضجّة إلى أن يأتي يوم تجرفها المياه الكدِرة أو تحرقها الصّاعقة أو، أسوأ من ذلك كلّه، تتحوّل إلى حال من البِلى تجعل المسافرين عليها يتردّدون بعد القيام بخطوة أولى فوق ألواحها المتعفِّنة في التقدّم خطوة ثانية، ويعودون للبحث عن عبّارة أو عن مكان ضَحْل يعبرون منه النّهر سيراً على الأقدام. وكان ذلك ناجماً عن أنَّها كانت مصنوعة جميعاً من الخشَب، في حين كان ينبغي أن يكون هذا جِسْراً حقيقيّاً من الحَجَر بعدّة عقود ومَعْبَر متين مُبلَّط، بل ربّما الجِسْر الأوّل من نوعه فوق أراضي «أربيريا» برمّتها.

استقبل النّاس الخبر بشعور امتزج فيه الخوف بالفرح. ولقد سُرّوا به لأنَّهم لن يتعاملوا بعدُ مع المُعَدّين الوقحين الموجودين على الدوام في الضفّة المقابلة للّتي تمسّ الحاجة إليهم فيها ولا يكونون أحياناً فيها على الإطلاق أو يكونون ـ وهذا أدهى وأمرّ ـ سُكارى، باستثناء

Twitter: @ketab_n

المُعَدّي الأخير الأحدب الذي لم يكن ـ وهذا ينبغي قوله وأيم الحقّ ـ يُناكف النّساء ولا يسكر قطّ، غير أنَّه كانت له سَحنة على قدر من الشّؤم يبدو معها وكأنَّه يقودك إلى الموت. ثمَّ إنَّ العبّارات كانت قذرة جدّاً ورطبة جدّاً، وكان ترجُّحها يُثير الغثيان، في حين سيكون الجِسْر نفسه حاضراً على الدّوام، في أيّة ساعة من النّهار أو اللّيل، مُستعِدّاً لبسط ظَهره الحجريّ تحت قَدَمَيْك من غير أن يهتزّ أو يثير مشكلة. ولن يكون على المرء أن يشغل باله بالنّهر الذي كان يتضخّم أحياناً ويعيث فساداً، ويَنْحَل أخرى فيغدو في دقّة خيط وكأنَّه يُسْلِم الرّوح. وكان النّاس سعداء حين يفكّرون في أنَّ نهر الـ «أويان» اللّعين الذي طالما أقلقهم سوف يروّضه كُلّاب من الحَجَر. . . إلّا أنَّ هذه الفكرة كانت تسبّب لهم الخشية والرّضى في آن معاً. فلم يكن من السّهل إلباس بغلةٍ شَموسٍ بردعة، ولن يكون أسهلَ إلباسُ بردعة لنهر الـ «أوديان» اللّعين. وكانوا يقولون: «أوه، لسوف نرى، لسوف نرى بالتأكيد كيف ستسير الأمور!».

وكما يحدث دائماً في أثناء أحداث بمثل هذه الخطورة فقد أخذوا يذهبون ويجيئون أكثر من ذي قبل بين بيوتهم المتفرّقة، بل يوغلون في الابتعاد إلى «غابة الحَوْر» التي لم يكن يُغامِر بالذّهاب إليها إلّا قلَّة من النّاس منذ وقع دوق «جِنّ» ضحيّة كمين قبل أن يقطع حِلفَه مع سيّدنا بوقت قصير. وكان آخرون يذهبون أيضاً إلى أشجار الرّمان البرّيّة وإلى الطّريق القديمة حتّى يصلوا إلى «نُزل الرويبريْن».

ومع ذلك فقد وُجدت جماعة اغتمّت كثيراً من بناء الجِسْر عوض أن تفرح لبنائه. وهذه كانت حال العجوز «أَيْكون» التي تنبّأت من جهتها بأكدر النبوءات. فلقد قالت: «إنَّ هذا الجِسْر هو ظَهْرُ الشيطان ولسوف تصيب اللّعنة من يجرؤ على المرور فوقه!».

Twitter: @ketab_n

(٧)

وفي نهاية شهر آذار (مارس) دُعيت مرّة جديدة على عجل لزيارة الكونت في يوم بارد مطير. ولقد صُعقت للتّفكير في أنّني ربّما كان عليَّ أن أتعامل كذلك مع ذَيْنِك الرّجليْن اللّذيْن كانت ترجمة همهمتهما الغريبة أصعبَ عليَّ من ترجمة لغة نقّار الخشب. ولكنّهما لم يكونا هما إيّاهما هذه المرّة. فقد جاء الزوّار الجُدُد من «عبّارات وأطواف». وكانوا ثلاثة، وكان أحدهم، وهو شاحب وطويل ينتهي وجهه بلحية مخروطيّة، قليلَ الكلام. وبالنظر إلى الاحترام الذي كان يكنّه له الآخران فقد كان بالإمكان التكهُّن بأنَّه من مسؤولي «عبّارات وأطواف» الرئيسيّين، بل ربّما كان مساعدَ سيّدهم الأكبر. وكانوا جميعاً يتكلّمون لاتينيّة مُتْقَنَة ومزوَّدين بحقائب من جلد أسود حافلة بشتّى أنواع الأوراق.

أدخلنا الكونت بادئ الأمر ديوانه الذي كانت مكتبةٌ متينةٌ من خشب السنديان تغطّي جداراً بكامله منه؛ وقد جهدتُ في قراءة عناوين الكتب وسألته بالمناسبة إعارتي أحدها.

قال الرّجل ذو اللّحية المخروطيّة من غير أن يرفع عينيه عن حقيبته: «لسنا نُدْرِك ما يأخذه علينا السيّد الكونت. فلقد أخلصنا دائماً، على ما أعلم، في الالتزام بجميع بنود عَقْدنا».

Twitter: @ketab_n

ارتسمت بقعتان حمراوان أو ثلاث على وَجْنَتَيِ الكونت اللّتين شابهما بعض الشّحوب منذ مرض ابنته.

وإذ قمت بمهمّة الترجمان في أثناء النّقاش الذي دار بينه وبين «عبّارات وأطواف» فقد علمت حقَ العلم بأنَّهم هم الذين كان لديهم على الدّوام ما يطالبون به سيِّدَنا، وأنَّه لم يكن لديه من جهته أي موضوع للشكوى. ولم تكن تلك المطالبات لتنقطع، وكانت تدور حول تأجيل استحقاق الديون التي أبرمها الكونت منذ حربه المنكودة مع دوق «تيبيلين». ولقد وجد مَصرِف «عبّارات وأطواف» نفسه مضطرّاً مرّتين إلى تخفيض مُعَدَّل الفائدة على القرض، من أربعة عشر بالمئة إلى تسعة بالمئة أوّلاً، ثمّ إلى ستّة بالمئة، ليقبل في النهاية بتمديد أجل الدّفع من دون أيّة فائدة. فلم يكن المصرف ليحرص على الدّخول في نزاع علنيّ مع سيّدنا. والحقّ أنَّه ما كان ليكسب شيئاً من ذلك لأنَّ سيّدنا ما كان ليدفع لهم فلساً واحداً مُتذرِّعاً بذريعة الخِصام. وكان ذلك مَخْرجاً يتّخذه بعض الأمراء، ولم تكن من قوّة لتستطيع إكراه الكونت على احترام الاتّفاق مع مَصرف، حتّى وإن كان أحد المصارف الكبيرة في «دورييس»، كما هي حال «عبّارات وأطواف».

ظنّ سيّدنا أنَّه اكتشف بعض السخريّة في كلمات الرّجل ذي اللّحية، فصاح: «عن أيّ شكوى تتحدّث؟ من الذي اشتكى منكم؟».

وكانت النّبرة التي طرح بها هذيْن السّؤاليْن تبدو وكأنَّها تقول: مَنْ تحسبون أنفسكم لكي تفكّروا في أنّي أتواضع للشكوى منكم أيُّها البكّاؤون الأبديّون؟

تفرّس رجل «عبّارات وأطواف» في وجهه ببرودة وقال:

«ليست القضيّةُ قضيّة شكوى مباشرة يا سيّدي الكونت».

قال سيّدنا:

Twitter: @ketab_n

«أوضح إذن ما تقول!».

رمقه الآخر بنظرة مواربة. وبدت لحيته السّوداء وكأنّها مِشدّ يُغلّف فَكّه ويُبقي رأسه متوازناً. وقال في نهاية الأمر:

«سيّدي، القضيّة قضيّة جِسْر».

قال سيّدنا:

«آه!».

بدا هذا التعجّب وكأنّه قد أفلت منه، والله يعلم لماذا تبادلنا النّظرات.

وكرّر الرّجل ذو اللّحية المخروطيّة وكأنّه ارتاب في ما إذا كان قد فُهم ما قال: «أجل، قضيّة جِسْر بالضبط». وكانت عيناه النفّاذتان مسدَّدتيْن إلى الكونت.

قال سيّدنا:

«إلى هذا الحدّ تريد أن تصل. وما شأنكم أنتم في هذا؟».

تنفّس ممثّل «عبّارات وأطواف» عميقاً. ولقد خُيّل أنّه كان بحاجة إلى أكبر كمّيّة ممكنة من الهواء لتجسيد كلماته. وأخذ يتحدّث على مهل، وكانت أفكاره تزداد عُرياً من عِبارة إلى عِبارة. وبدت عارية تماماً في نهاية المطاف. إنَّ «عبّارات وأطواف» تعارض بناء الجِسْر لأنَّه يضرّ بالغ الضرر بمصالح الشركة. ولم يكن السبب مقتصراً على أنَّ العبّارة سوف تتوقّف عن العمل فوق نهر الـ «أُويان». لا، لقد كان هناك ما هو أهمّ. فالجِسْر سيخرب نظام النقل النّهري برمّته، ذلك النّظام القائم على العبّارات والأطواف والزوارق مُنْذُ أقدم الأزمنة والمحصور حاليّاً في أيديهم.

كان سيّدنا يُصغي بشكل يعبّر عن الاحتقار. وكان مبعوث «عبّارات وأطواف» يعبّر عن آرائه بعِبارات موزونة جدّاً. وكنت أترجم

Twitter: @ketab_n

بيُسر لاتينيّته الصافية، بل كان يتبقّى لي ما يكفي من الوقت للتّفكير في ما كنت أسمعه. فقد قال إنَّ هذا الجِسْر سيكون المصيبة الأولى تنزل بوحشية بروح المياه الحرّة (كانت تلك كلماته). وعلى النّاس أن يتوقّعوا بعد ذلك شروراً أخرى. وليس في الوسع إلّا انتظار كارثة كبرى من جرّاء هذه القيود البشعة المفروضة على المياه وكأنّها لمعاقبتها.

ازدادت نظرة سيّدنا تفكُّراً. ونظر إليَّ من طَرْف خفيّ. ويبدو أنَّ رجال «عبّارات وأطواف» لاحظوا ذلك: فخلال ما تبقّى من المقابلة كان ما ألحّوا عليه بشكل خاصّ هو هذا الجانب من الأمور، فأخذوا يتحدّثون بإسهاب عن الجسور.

كان جليّاً تماماً أنَّ وحش المياه، «عبّارات وأطواف»، يُضْمِر عداوة ضارية للوحش الأرضي الذي كان يشقّ الطّرق ويبني الجسور.

وقالت اللّحية المخروطيّة: «امنعوهم من التعدّي على أراضينا ونحن مستعدّون لإبرام ترتيب جديد فيما يخصّ ديونكم».

كان سيّدنا ينظر إلى يديه.

لقد قال الرّجل ذو اللّحية السّوداء «امنعوهم»، ولكنّه كان قد لفظ ذلك بنبرة هي من الوحشيّة بحيث بدا وكأنّه قال: «اقتلوهم، اذبحوهم، مزّقوهم إرْباً، كيلا يفكّر النّاس في بناء الجسور على هذه الأرض خلال أربعين جيلاً».

قبل بضعة أعوام وصف لي راهب هولّندي عاد من رحلة بعيدة عراكاً بين تمساح ونَمِر كان قد شاهده جاثماً فوق شجرة.

قالت اللّحية المخروطيّة: «بل في وسعنا تأجيل استحقاق ديونكم إلى أَمَد طويل».

Twitter: @ketab_n

كان سيّدنا يحتفظ بعينين مُسْبَلَتَيْن على خاتم يلتمع في إحدى أصابعه. وأضاف الآخر: «بل حتّى إلى ما لا نهاية».

لقد أخبرني الهولّندي أنَّ الوحشيْن كانا قد انقضّا أحدهما على الآخر طويلاً من غير أن يُفلحا في التناهش أو التضارب.

وسألَتِ اللّحية المخروطيّة: «ثمَّ هل تعلم يا سيّدي الكونت ما الذي يهتمّ به الرّجل الذي يريد بناء هذا الجِسْر؟».

قال سيّدنا وهو يرفع كتفيه: «لا يهمّني الأمر كثيراً».

وألحّ الآخر قائلاً: «اسمح لي مع ذلك أن أخبرك بالأمر. إنَّه يقوم بعمل مشؤوم».

كان النَّمِر قد ارتمى ثلاثاً على ظهر التمساح، وانزلقت براثنه ثلاثاً فوق حراشفه الصّلبة. بيد أنَّ هذا لم يتمكّن هو الآخر من نهش خصمه ولا من ضربه بذيله. وبدت المعركة وكأنَّها لا تريد قطّ أن تنتهي.

قال سيّدنا: «بالطّبع، فالقطران الذي يستخرجه أسود اللّون».

وأكَّدتِ اللّحية المخروطيّة: «أسود مثل الموت».

لقد اكتشفوا مجدّداً على ما يظهر ذلك الخيال الجَهْم في عينيْ سيّدنا، لأنَّهم شدّدوا على نُذُر الشّؤم. وأخذوا يتكلّمون ثلاثتهم في وقت معاً مقاطعين بعضهم بعضاً، ساعين إلى التأكيد أنَّه يكفي النّظر إلى براميلهم الملأى بذلك الشيء الفظيع للاقتناع بأنَّ السّحَرة وحدهم قادرون على القيام بمثل هذا العمل عن طيب خاطر، وأنَّ الشرّ سيصيب أيّ شخص يسمح بأن تَعْبُر على أراضيه عربات محمّلة بهذه البراميل التي سوف تلطّخ الطّرق أو تُدميها بالحري بدم الشيطان الأَسْوَد. أضف إلى ذلك أنَّ هذا القطران الذي يضاعف الشرّ في كلّ مكانٍ يتقطّر فيه هو اليوم جزء من آلة الحرب، وأنَّ ذلك السّاحر يبيعه

Twitter: @ketab_n

لأيّ كان، للأتراك والبيزنطيين، كما لكونتات «أربيريا» ودوقاتها، محرِّضاً بذلك كلَّ فريق على تمزيق الآخر.

«ذلكم هو ما يجلبه هذا القطران الذي تتهيّأ لتركه يمرّ فوق أراضيك. الموت. الحِداد».

إلَّا أنَّ التمساح كشف في التواءة عنيفة عن بطنه الرخو أمام ناظريِ النَّمِر، فانقضّ هذا مجدّداً بزمجرة رهيبة عليه، وإذ اغتنم لحظةً كشف فيها من جديد عن بطنه فقد وثب كالبرق وأنشب فيه مخالبه ورأسه في الوقت نفسه تقريباً. وبسرعة لا تُصدَّق مزّق أحشاءه، وقد أسكره طعم الدّم، وبلغ قلبَه فقطّعه إرْباً.

استمرّ الثلاثة يتكلّمون في وقت واحد، غير أنّني حزرت، إذ كنت أعرف سيّدي، أنّه كان قد كفّ عن الإصغاء. وربّما كان الشّغف البالغ الذي صرفوه في دعم أطروحتهم قد أفقدهم الفوز بالمباراة. وقد بدا في لحظة من اللّحظات أنّ سيّدنا مُتردِّد، غير أنّي كنت أعلم أنَّه يغيّر رأيه بصعوبة. فالمبلغ الذي وعده به الأرضيّون كان يفوق بكثير مجموع عائداته من المائيّين. أضف إلى ذلك أنَّ حالة ابنته قد تحسّنت على ما يبدو منذ اللّحظة التي قرّر فيها أن يُبنى الجَسْر.

قال في نهاية المطاف: «كلّا، لنكُفَّ عن الكلام على ذلك. لسوف يُقام الجسر».

ولبثوا مصعوقين. وقد حاولوا مرّتين أو ثلاثاً تحريك أيديهم وكأنَّهم سيقولون شيئاً، إلَّا أنَّهم اكْتَفَوْا بإغلاق حقائبهم المفتوحة.

لقد انهزم الوحش المائي.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٨)

بعد أسبوع أبرم سيّد الجسور والطُرُق شراء قطعة الطّريق الذي يخترق ممتلكات سيّدنا. وقد وقّع العقد اثنان آخران من مبعوثيه كانا يذرعان بلا توقّف منذ ثلاثة أشهر الإمارات والكونتيّات والباشاويّات لشراء الشريان الغربي الكبير في «البلقان»، وكان مهجوراً منذ ما يقارب ألف عام. وكانت ملابسهما وشعورهما معفّرة بغبار ذلك الطّريق الذي لا نهاية له. وكانا قد حصلا حتّى الآن على أكثر من نصفه قطعةً قطعةً، ولربّما جالا في هذه البلاد طَوال الصيف لتأمين شرائه بأكمله. ولقد دفعا ثمنه بأربعة عشر نوعاً من العُمُلات، دوقات من «البندقيّة» ودنانير ودراخمات وليرات وغروش إلخ. . . . حاسبيْن الحسابات بإحدى عشرة لغة ناهيك عن اللّهجات. وذلك بسبب مروره بحوالَيْ أربعين إمارة كبرى لم يكونا قد زارا منها حتّى الآن سوى ستّ وعشرين. ولم يكن يبدو أنّهما يشتريان بقدر ما كانا يلفّان على بَكْرة ضخمة ذلك الطّريق العتيق المليء بالحُفَر الذي دمّرته فصول الشتاء والصيف وطول الإهمال.

كان قِدَم الطّريق يتناهى في ليل الأزمنة. فمن هنا مرّت خلال القرون الثلاثة الأخيرة جميع الحملات الصليبيّة تقريباً. ويُقال إنَّ اثنين من قادة الحملة الصليبيّة الأولى، «روبير»، دوق «نورمنديا»،

Twitter: @ketab_n

و«روبير»، كونت «الفلاندر»، قد توقّفا ذات ليلة في النُّزُل القائم على بُعد ألف خطوة من هنا، فسُمِّي مذّاك «نُزُل الروبيريْن».

ومرّ عليه عشرات الآلاف من فرسان الحملة الصليبيّة الثانية ثمَّ الثالثة يقودهما «بربارُوسّا»، أو «بربولوش» كما كان يدعوه فلّاحونا، والجموع التي لا تحصى في حَمْلة «الأولاد» الصليبيّة، ثمّ فرسان الحملات الخامسة والسّابعة والثامنة، و«فرسان الهيكل»[1] و«الإسبطاريّة»[2] و«العماليق». وأكبر النّاس سنّاً كانوا يتذكّرون هؤلاء الأخيرين. لا من خلال توجُّههم إلى «القدس» بالطّبع، وإنّما من خلال عودتهم إلى «أوروبا» قبل أربعين عاماً.

وكانت العجوز «أيْكون» تروي أنّهم لم يسبق لهم قطّ أن رأوا جيشاً أزرى حالةً منهم. فقد كانوا يتقدّمون ببطء وهم بُكْمٌ على جيادهم وسط قعقعة شِكّاتهم التي كان يتقاطر منها تحت المطر ماءٌ بُنّيُّ اللّون بسبب الصّدَأ. وكانوا يُصعِّدون نحو الشّمال وسط ذلك الصّرير الشبيه بالأنين راشّين الطّريق بذلك الماء الشبيه بِدَم حائل اللّون. وكانت «أَيْكون» تروي أنّه لدى رؤية الفرسان الأوائل في طريقهم إلى «القُدْس» أخذ النّاس يصيحون: «وصل الجِرمان! وصل الجِرمان!» وكانت مئة وخمسون سنة قد انقضت منذ مرورهم، غير أنَّ التقليد الشفوي قد نقل وصفاً أميناً لم يلبث النّاس أن استشعروا معه أنَّهم يعرفونهم. وكانوا يقولون إنَّ «الجرِمان» ـ أولئك الذين يشبه كلامهم الـ «جِرْمِ»[3] ـ أخذوا يعودون. والحقّ أنَّ الطّاعنين في العمر

---

(١) يعرفهم العرب باسم (الداويّة). (المترجم).

(٢) التسمية العربيّة لـ (Hospitaliers). (المترجم).

(٣) كلمة ألبانيّة تعني (الكابوس) أو (الهذيان). [حاشية المترجم إلى الفرنسيّة] (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كانوا يزعمون بأنَّه أُطلق عليهم هنا بالضّبط اسم «جِرمان» ـ أي أناس يتحدّثون وكأنَّهم في «جِرمْ»، أو كابوس ـ للمرّة الأولى. ويظهر، من ناحية ثانية، أنَّ الاسم قد راقهم، لأنَّهم دَعَوا أنفسهم على هذا النّحو في كلّ مكان، على ما يُقال. بل إنَّهم بدأوا يسمّون بلدهم «جِرمانيا»، وهذا يعني في الألبانيّة البلد الذي يتكلّم النّاس فيه وهم يهذون، أو باختصار بلد الهذيان.

رحت أتذكّر هذا كلّه نُتْفةً نُتْفَةً في الوقت الذي كان يُبْرَم فيه عقد الشّراء. وقد دفعا بدوقات «البندقيّة» عن كلّ باعٍ وذهبا في النّهاية راضييْن وكأنَّ الطّريق قد قُدِّم لهما هديّة. وعلى ذلك تابعا طريقهما بشعورهما وملابسهما المعفَّرة.

كان الرّاهب الهولّندي قد روى لي أنَّ الوحش الأرضيّ، بعد أن التهم قلب التمساح تاركاً إيّاه ميتاً تحت حراشفه التي أصبحت عديمة النَّفع، مضى في طريقه إلى الأدغال داميَ الخَطْم وكأنَّه ثَمِلٌ.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٩)

بعد زمن يسير نزل على ضفّة الـ «أُويان» ذات صباح قاتم مسافران مذعوران من فوق بغلتيْهما المحمّلتيْن بالأثقال. وبعد أن سألا بعض الغلمان اللّاعبين بالقرب من المكان عمّا إذا كان هذا بالضبط نهر الـ «أُويان» اللّعين، حطّا أحمال بغلتيْهما وأسرعا يحفران في الأرض حُفَراً ليغرزا فيها أوتاداً كبيرة. وبدا حوالَيِ الظّهر أنَّهما كانا يبنيان كوخاً. وعملا طول النّهار وفاجأهما المساء وهما في غمرة العمل. وفي صباح اليوم التالي لم يكونا هناك. ولم يكن قد بقي غير الكوخ الصّغير الملتوي قليلاً الذي كانا قد أقاماه وزوّداه بباب مُقْفَل بمزلاج.

أثار الكوخ فضول الجميع. وأخذ بعض النّاس، ولم يقتصر الأمر على الأولاد والشيوخ، يطوفون حوله ويقرِّبون وجوههم من الشّقوق المتروكة بين الألواحِ، للنّظر في داخله، ثمَّ انصرفوا خائبين وهم يهزّون أكتفاهم وكأنّهم يقولون: ليس من شيء في الدّاخل. وأخذ بعضهم ينظرون إلى المزلاج ويلمسونه مثيرين اعتراض الآخرين، ثمَّ يهزّون رؤوسهم ويبتعدون.

مرّت أربعة أيّام. وكان الفضول قد تبدّد عندما عاد فجأة إلى الانبعاث في اليوم الخامس. فلقد عُلِمَ، أو بالحري خُمِّن، أو على الأصحّ أيضاً استُشعِر، في ذلك الصّباح، أنَّ الكوخ لم يكن خاوياً.

Twitter: @ketab_n

ولم يكن يصدر عنه أيّ دخان، ولا أيّ صوت، ومع ذلك فقد استُشعِر أنَّ أحداً ما بداخله. ولا بدّ أن يكون الرّجل قد وصل خلال اللّيل.

لم يلمحه أحد في ذلك اليوم ولا في اليوم التالي. وكانت السّماء ترذّ، وقد لفّ المكان ضباب يخترقك حتّى العظام، وقال الذين كانوا قد اقتربوا من الكوخ ونظروا إلى الدّاخل من بين الشقوق إنّ الرّجل المجهول كان مُقَرْفِصاً أرضاً وقد اشتمل بغطاء.

ولم يخرج إلّا في اليوم الثالث ما إن توقّف المطر. كان رجلاً أحمر الشّعر أجعدَه ومُشَعَّثَه، ووجهه مبقَّع بالنّمش ونظرته كدِرة. وقد مشى طويلاً فوق الحصباء وعبر بالعبّارة إلى الضفّة المقابلة فذرعها ثمَّ عاد إلى كوخه فاحتبس فيه طَوال اليوم.

وإذ رآه النّاس في الأيّام التالية يُخَوِّض في الماء إلى ركبتيه ويغرز أنواعاً من الأوتاد ويغمس في النّهر ألواحاً من الصّفيح ويراقبها بيقظة، ثمَّ يملأ يديه عدّة مرّات بالوحل ويَدَعَه يَقْطُر من بين أصابعه، فقد أدركوا جميعهم أنّه لا يمكن أن يكون إلّا أحد بنّائي الجِسْر.

ظلّ خمسة عشر يوماً في كوخه الملتوي مُتَجَهِّمَ الوجه لا يُكلِّم أحداً.

وكان النّاس يتوافدون من كلّ صوب لرؤيته. وكان بعضهم يظلّون واقفين فوق حصى الضفّة الأسود أو فوق رصيف الرّكوب العتيق وينظرون إليه ذاهباً جائياً داخلاً في الماء خارجاً منه إلى الضفّة ثمَّ مُقَرْفِصاً بغتة، بغضب تقريباً، لخربشة أرقام ورسوم تمهيديّة.

لم يكن يحفل قطّ بالنّاس الواقفين هناك لمراقبته ساعات بأكملها. ولا كان يُدير رأسه مرّة واحدة للنّظر إليهم. وحتّى العجوز «أيْكون» التي كانت تتجرّأ على الدُّنُوّ منه وتهديده كانت تُستقبل بلامبالاة تامّة. ولقد ضربت الأرض أمامه بعصاها مرّتين أو ثلاثاً لاسترعاء انتباهه،

Twitter: @ketab_n

وحين رفع رأسه عن خربشاته صاحت به: «ماذا تفعل؟ ألا تتّقي مَنْ في السّماوات العُلى؟» ورفعت عصاها إلى السّماء. وقد يكون فهم ما قالته له، أو لعلّه لم يحفل بكلماتها، وهذا ما ليس في الوسع قوله، وعلى أيّ حال فقد خفض رأسه فوق أرقامه ولم يرفعه قطّ.

وإذ أدرك النّاس أنَّه لا يهتمّ قطّ بما يجري حوله فقد بدأوا يتكلّمون ويُصدِرون أحكاماً عليه وعلى عمله، هنا، تحت أنفه. فكان أحدهم يقول: «ها هو ذا الآن يُقَطِّر الوحل من يديه؛ إنَّه يريد أن يتبيّن طبيعة التربة. لأنَّ الأرض كالإنسان، قويّة أو ضعيفة، سليمة أو مريضة. وبالإمكان أن تكون من الخارج جميلة جدّاً، ولكنَّها يمكن أن تحمل المرض في داخلها. وكذلك الأمر فإنَّه لا يمكن القول إذا كانت هذه الأرض أيضاً تحمل على ظهرها خيراً أو كارثة. وهو يستقطرها بالضّبط لاكتشاف أسرارها».

كانوا يثرثرون حوله على هذا النحو من غير أن يتخلّى مع ذلك عن لامبالاته التامّة. وأوّل من تمكّن من إقامة علاقة وإيّاه كان «جيلوش» الأبله. فمن غير أن يكون أحد قد قال له شيئاً، ومن غير أن يُعْلَم كيف، وبِصَمْتٍ، وضع نفسه في خدمة الغريب، فكان ينتظر قبل الفجر عند خروجه من الكوخ، ويحمل له أوتاده وأدواته الأخرى إلى الضفّة، أو يعود له بها إلى الكوخ. وكان يذهب ويجيء حواليْه طَوال النّهار، والأَصْهب الجَهْم الذي كان يبدو مستعدّاً لعضّ يديه عندما لا يسير عمله على هواه يتقبّل بصمت رُفقة الأبله. وقد كان «جيلوش» يراقبه بإعجاب ويُبْعِد أيَّ شخص يقترب من خربشاته المخطوطة على الرّمل ولا ينبس في حضرته ببنت شفة. وكان المجنون يستعيد مَلَكَة الكلام فقط عندما يحتبس البنّاء في كوخه، فيُقال له: «هيه يا «جيلوش» أخبِرْنا قليلاً كيف يعمل سيّدُك». وعندها يتهلّل «جيلوش»

Twitter: @ketab_n

ويتناول عصاً ويأخذ بحكّ الأرض بكلّ قواه وهو يقذف بالوحل والحجارة على بُعد عشرين خطوة. «إليكم، على هذه الشاكلة»، هذا ما كان يقوله وهو يلهث ويحكّ الأرض بمزيد من العنف.

* * *

Twitter: @ketab_n

(١٠)

رحل البنّاء كما جاء، من غير أن يلحظ أحد رحيله. وقد رؤي «جيلوش» الأبله يذهب ويجيء ذات صباحٍ أمام الكوخ المُغْلَق بالمزلاج. وكان يُدني رأسه من الشّقوق وينظرُ مليّاً إلى الدّاخل، ثمّ يعود إلى الطواف حول الكوخ. ولم يكن يبدو قادراً على الاقتناع بأنّ البنّاء ليس هنا، وكان يبحث عن ثقب أو صَدْع يمكنه منه التأكّد من ذلك.

لقد تابع فِعلته طَوال النّهار تقريباً. ولم يسبق قطّ أن عبّرت عيناه عن مثل ذلك الحزن.

* * *

Twitter: @ketab_n

(١١)

استمرّت العبّارة تنقل النّاس والماشية فوق نهر الـ «أُويان» اللّعين. وقد شرعتُ، مُذ تقرّر بناء الجِسْر، أراقب ـ ولست أدري تماماً سبب ذلك ـ ما كان يُنقل من ضفّة إلى ضفّة. وآخر سَبْتٍ من شهر آذار (مارس) قضيت النّهار كلّه تقريباً بالقرب من رصيف الرّكوب العتيق أنظر إلى حركة الذّهاب والإياب. وكان الجوّ بارداً، وقد محا المطر المتساقط فوق الرّمل خربشات البنّاء الأخيرة. وفوق العبّارة حرص النّاس المُتَجَهِّمون، وقد قَبَّضهم المطر، على إدارة ظهورهم للرّيح القارسة. وكان من الصّعب التكهّن، نظراً لوجوههم المتشنّجة، بسبب عبورهم النّهر؛ ألأخذ عيّنة من الدّم، أو لتقديم تعازٍ، أم لمجرّد زيارة صديق ومبادلته أطراف الحديث، أم حتّى للذّهاب إلى المصرف، أم لقتل أحدهم. وكنت أعرف نصفهم عِياناً؛ وأمّا الآخرون فلم يكن مُجدياً العمل على التكهّن بهويّاتهم. وكان من الممكن أن يختبئ سفير «البندقيّة» نفسه في مُسوح راهب أو في ثياب رجل بسيط من رجال البريد، ويكون في مهمّة سرّيّة. ولقد سُمعت أحاديث عن حالات من هذا النّوع.

* * *

Twitter: @ketab_n

(١٢)

بعد ثلاثة أيّام كنت أراقب العبّارة مُجدَّداً من شُرفة الدّير. ولم يمرّ سوى رجلين مع مواشيهما. وقد قامت العبّارة بعدّة رحلات لنقل القطيع الصّغير. وكان الرّاعيان مشتمليْن بعباءتيْن رماديّتيْن تعلوهما طاقيّتان. وكان مظهرهما من بعيد يُثير الارتياب.

في فجر اليوم التالي سمعتُ في نومي أصواتاً بعيدة بدا أنَّها كانت تستغيث صائحة: «الذّئب، الذّئب...» ونهضتُ على عجل وأصختُ السَّمع: كانت بعض الأصوات المتداعية تصرخ بالفعل: «أُوك، يا أُوك». وخرجت إلى الشّرفة ولمحت في الدّغشة على الضفّة الأخرى أربعة أشخاص أو خمسة متحلِّقين حول صندوق أسود ضخم. وكانوا هم الذين ينادون المُعَدّي. وكان صياحهم الذي رقّقته مياه النّهر الغليظة يترامى إليّ بعناء. وكان الصّياح قاتماً وبارداً، ويعلم الله الهاجسَ الذي كان قد دعاهم إلى المسير قبل الفجر. واستمرّوا ينادون «أُوك، يا أُوك» وقد جمعوا أيديهم أبواقاً حول أفواههم.

ورأيت آخر الأمر «أُوك» يهبط إلى الضفّة مَحْنِيّاً على عادته لاعناً بالتّأكيد من بين أسنانه المسافرين المجهولين والعبّارةَ والنَّهرَ وشخصَه نفسَه.

وعندما اقتربت العبّارة من الضفّة الأخرى وتهيّأ الرّكاب لصعودها لاحظتُ أنَّ ما كنت قد ظننتهُ صندوقاً قديماً كان في الواقع نعشاً. وقد

Twitter: @ketab_n

رفعوه بحذر لوضعه فوق ألواح العبّارة. وكان في الأمر بعض الغرابة. فقد كانت العبّارة تُقِلّ عادةً مواكب أعراس وجماعات من النّاس تغنّي وتصيح، بيد أنّه لم يسبق قطّ أن رأيتُ حتّى الآن موكباً جنائزيّاً.

ودخلت لأصيب قسطاً ضئيلاً من النَّوم، إلّا أنَّ هذا قد جافاني.

* * *

Twitter: @ketab_n

(١٣)

وصلت قافلة البنّائين الأولى مصحوبة ببغلات مُثْقَلَة بالأحمال في ١٧ نيسان (أبريل) حَوالَيْ منتصف النّهار. وفي طليعتها كان يسير «جيلوش» الأبله وقد جنّ جنونه من الفرحة، وهو يحرّك ذراعيه وكأنَّه يقرع طبلاً، وينفخ وجنيته وكأنَّه ينفخ في بوق.

توقّف الرّجال وبغلاتهم عند ضفّة النّهر قريباً جدّاً من الكوخ الخاوي. وفي هذا الفضاء المُقْفِر بدأ تنزيل الأحمال وسط البلّان ومناقع الماء، واستمرّ طَوال النّهار. وما إن شارف الأصيل على الانتهاء حتّى كانت الضفّة التي توقّفت القافلة عندها قد تغيّرت هيأتها تماماً. فقد كانت تُرى فوقها الآن كومة مشوّشة من الألواح والأوتاد وكلّ أصناف الأدوات، يروح ويغدو وسطها أناس يتحدّثون لغة هجينة لا طعم لها وكأنَّها ماء تمّ غَلْيُه. وكانت هناك فوضى جعلت «جيلوش» نفسه يُضِيع صوابَه ويفقد فرحته الأولى.

وفي وقت متأخّر من العشيّة شرع قادمون جُدُد في بناء أكواخ على ضوء المشاعل. ونام جزء منهم تلك اللّيلة في الخارج، وتواصل بناء الأكواخ في اليوم التالي والذي بعده. وقد دهش النّاس لمرآها تنبثق، حتّى وهي لا تزال مشوَّهة الخلقة، من بين تلك الكومة المشوّشة. ولأَنْ يكون في وسع هذه أن تَلِد جِسْراً فذلك كان يبدو أمراً غير معقول. فبقدر ما كان رجال «عبّارات وأطواف» منظّمين ونظيفين في

Twitter: @ketab_n

كلّ عمل من أعمالهم، كان «الطُرُقيّون» فوضويّين وجُفاة.

وقبل نهاية نيسان (أبريل) وصل فريقان جديدان، إلّا أنَّ العمل في بناء الجسْر لم يبدأ في الحقيقة إلّا عند قدوم المسؤول عن أعمال الورشة. وقد شُرع بادئ الأمر في الحَفْر بعيداً عن الماء، على الجوانب، وكأنّ الجسْر كان يميل إلى الابتعاد ما أمكن عن النّهر. ولقد فُتحت الآن في الأَرض المفروشة بالأَسَل مجموعة من الحُفَر والخنادق بدت بلا نفع، ولم تكن تقود إلى أيّ مكان. وكان الجميع يعملون على تمهيد الأرض بعيداً عن المياه، وكأنَّهم كانوا يريدون طمأنة النّهر والقول له: ليس لنا شأن معك، ألا ترى كيف نحفر بعيداً؟ سِلْ ناعمَ البال!

كانت الثّقوب والحُفَر تبدو على الدّوام أقلّ استجابة لخُطّة مرسومة سلفاً، وقد مرّت برهة ظنّ معها الجميع أنَّ المسؤول عن الورشة بلا إدراك حقّاً، وأنّه كان يُبَذِّر المال المرصود لبناء الجِسْر. وكان يُقال «وعلى أيّ حال فإنّه ليس من قبيل المصادفة أن يصبح «جيلوش» صديقه بمثل هذه السّرعة. فالمجانين يتفاهمون فيما بينهم».

كان «جيلوش» يروح ويغدو بالطّبع طَوال اليوم وسط ذلك السّديم مُواصِلاً حركاته وإشاراته من غير أن يطرده أحد. وكان المُناظِران اللّذان يُشرفان على سير الأعمال يدعانه يفعل، هما بالذّات. وكانا بخلاف معلِّمهما ثرثارَيْن وبشوشَيْن. وكان أحدهما مكتنزاً قصيراً أصلع وفي عنقه نتوءات قال بعضهم إنَّها أمارات على مرض عُضال، وقال آخرون إنَّها آثار عمليّات تعذيب كان قد أُخضع لها لإفشاء أسرار بناء الجُسور. وكان الذين يميلون إلى الافتراض الأخير مُنقسمين هم أنفسهم إلى فريقين. فالفريق الأوّل يؤكّد أنَّه عجز عن مقاومة الضغوط فباح بالسّرّ، والفريق الثاني يؤكّد أنَّه تحمّل كلّ شيء وانحنى كالجِسْر

Twitter: @ketab_n

تحت الآلام، غير أنَّه لم يستسلم. وكان الثاني بخلاف الأوَّل نحيلاً وكلّ شيء فيه رقيق وحادّ: الرّأس والذّقن والعُضدان. وقيل فيما بعدُ، عندما اضطرّ الجميع للغوص في وحل النّهر، إنَّ المسؤول عن الورشة لم يكن يكلّمه إلَّا مُديراً ظهره إليه لتحاشي النّفور من رؤية ساقيه الشبيهتيْن بساقيْ هيكل عظمي، وكان يكشف عنهما بنطاله المشمَّر.

* * *

Twitter: @ketab_n

(١٤)

عندما أقبلت أيّام القيظ الشديد وانخفضت مياه نهر الـ «أُويان» اللّعين انخفاضاً ملموساً، نشطت فجأة هذه المجموعة من الحُفَر المحفورة على جانبَيِ النّهر. وأخذ العاملون في الحَفْر يمدّون الحُفَر شيئاً فشيئاً حتّى ضفاف المياه التي شرعت تصبّ فيها. ولو نُظر إلى الحُفَر من فوق لذكَّرت الآن بعَلَق هائل يمتصّ ماء النّهر الذي سبق مع ذلك أن نضب بما فيه الكفاية.

تغيّر مشهد نهر الـ «أُويان» اللّعين في أقلّ من يومين. فقد أخلت المياه المرتعِشة قليلاً المكانَ في كلّ ناحية لوحل ثقيل مصحوبٍ هنا وهناك ببعض الانعكاسات الحَوْلاء، العمياء.

وأسفلَ قليلاً كانت الحُفَر تُعيد إلى النّهر مياهه، إلّا أنَّ كلّ شيء في الأمكنة التي سيُبنى عليها الجِسْر كان بشِعاً وقذِراً. وعلى سطح تلك المَوْحَلة كانت تطفو في بعض المواضع أسماك ميتة. وكان بعض الشعراء المغنّين الذين لا يُدرى من أين جاءوا يراقبون بحزن المشهد المؤثّر ويغمغمون: «ما الذي يحدث لو هكلت جِنِّيّة أو جِنِّيّ في هذا الاضطراب؟».

وأُزيحت العبّارة العتيقة قليلاً صُعُداً، وكان قائدها الأحدب يلعن طَوال النّهار القادمين الجُدُد.

وكانوا يذهبون ويجيئون بلا انقطاع في المَوْحَلة حاملين دِلاء

Twitter: @ketab_n

مملوءة بالوحل، وكانوا، وهم على ما هم عليه من القذارة، يَلُوحون كالأشباح، وقد بدأت الآن، لا الضفاف وحسب، بل الأرض المحيطة بها على مسافة لا بأس بها، تتلطّخ بالوحل. وحلٍ لم تكن آثاره تترامى إلى الطّريق الكبرى فقط، وإنّما إلى أبعد من ذلك أيضاً، حتّى «نُزُل الروبيريْن».

وكان رئيس الورشة يروح ويغدو متجهّماً صعبَ المِراس وسط زحمة الأعمال. وكان رأسه الأمْغَر يبدو، تحت أشعّة شمس الغسق، وكأنَّه يُرسل في بعض الأحيان شَرَراً شيطانيّاً. ولم يَعُدِ النّاس يقولون عنه في الوقت الحاضر إنَّه مجنون؛ بل كان رجاله، على العكس من ذلك، هم الذين يُحْكَم عليهم بأنَّهم مجانين، وكان السّؤال الوحيد المطروح هو عمّا إذا كان سيتمكّن من السيطرة على هذا الجحفل من المُخبَّلين.

كان النّهر يزداد قُبحاً على الدّوام. فقد كان الآن يُذكِّر بسمكة أنقليس ممزّقة، بل لقد كان النّاس يتوقّعون أن تفوح منه رائحة كريهة. وبدأوا يرثون له بمعزل عن الأضرار التي كان قد حملها إليهم.

وعندما رأته العجوز «أيْكون» على هذه الحال غطّت عينيها بيديها. وكانت تصرخ: «كيف تجرّأوا على قتل النّهر؟ كيف سلخوا جلده حيّاً؟» وأخذت تبكيه كما كانت ستبكي إنساناً: «لقد قتلوكَ وأنت نائم أيُّها النعِس، لقد وجدوكَ بلا حَوْل فمزّقوك إرْباً!».

ودخلت في الوحل بحثاً عن البنّاء، وغمغمت: «سيأتي اليوم الذي ينتقم فيه النّهر. ولسوف يمتلئ بالماء من جديد ويستعيد قواه، ولسوف ينتفخ ويزمجر. وأين ستختبئون عندئذٍ؟ أين؟».

وخُيِّل إليها أنَّها لمحت من بعيد رئيس الورشة فرفعت عصاها مهدِّدة: «أين ستختبئ عندئذٍ أيُّها الدّجّال!».

Twitter: @ketab_n

(١٥)

فيما كان حفْر الحُفَر العميقة مستمرّاً لإرساء أسس الدّعائم كانت ابنة سيّدنا كونت «جيكا» تُخطَب. بل كانت الخطبة بالحري فريدة في نوعها: فلم تكن صادرة عن البارونات ولا الدوقات ولا الأمراء الألبانيين أو الأوروبيين، كما كان طبيعيّاً أن يكون أمرها، بل عن جهة لم يكن قد جاء منها وسطاء ولا مواكب أعراس: من «الدولة» التركيّة. فقد طلب حاكم إقليم واقع على حدود الإمبراطوريّة من الكونت يد ابنته لابنه «عبد الله» (يا له من اسم!) وقد تمّ الطلب، حسب أقوال المبعوثين، بموافقة السلطان ـ الإمبراطور؛ وهكذا بدا أنَّ العرض كان يُشكِّل حِلفاً سياسيّاً. فلقد أبدى سيّدنا «سترس جيكوندي» برودة، بل خشونة، مع جيراننا الجُدُد فسعى هؤلاء، إلى خطب ودّه.

كانت المصاهرات منذ أقدم الأزمنة تشبه زيتاً ملطِّفاً يُلقى فوق بحر الخلافات والمنازعات والخصومات بين الأسياد في «أربيريا». وكان لها بالتأكيد سلطانٌ مُوَحِّد عابر.

فقبل عام طلب ابنةَ سيّدنا الوحيدة للزّواج كونت «كاشنييه»، وبعد ذلك بقليل طلبها دوق «جِن»، أو «دوكاجِن» كما يُدعى اختصاراً، الذي تحمل أسلحته نسراً أبيض برأس واحد. وفي حين رفض سيِّدنا تزويج ابنته للأوَّل لأسباب يعلمها هو وحده، عَدَل الثاني بنفسه عن

Twitter: @ketab_n

طلبه غداة الكمين الذي نصبه له في «غابة الحَوْر» مجهولون مدفوعون بالتّأكيد من خصوم سيّدنا الأقدمين، آل «سكورايي»، الذين تحمل دروعهم ذئباً مُبدياً أسنانه.

وكانت المنازعات بين الأمراء والأسياد الألبانيين تجري بشكل مستمرّ لا يُرجى صلاحه في الأعوام المئة الأخيرة. فأمراء «الشّمال»، آل «بلشا» الذين يتضمّن شعارهم نجمة مسدّسة الفروع، وقد ازداد في الأعوام الأخيرة ما يعانون من مصاعب ماليّة، قلّما كانوا على وِفاق مع آل «توپيا» المزهوّين الذين كان بيتهم يطمح إلى الاستيلاء على عرش «ألبانيا» بأسرها. ولم يكن آل «بلشا» على علاقة طيّبة كذلك بكونتات «ميزيك»، «الموزاكاويّين»، الذين أضافوا إلى درعهم القديمة نبْعاً ذا شُعبتيْن يمثّل، حسب الشّائعات، منابع البترول المُكْتَشَفة حديثاً في مُمتلكاتهم. كما أنَّ «الموزاكاويّين» كانوا في نزاع شبه مستمرّ مع أمير «لوريبه» النّافذ، «أرانيت كومنين»، على الرّغم من تحالف الفريقين مع أباطرة «بيزنطة»، وذلك بخلاف آل «دوكاجِن» «وبلشا» و«توپيا» الذين لم يعقدوا أيّ حلف مع الخارج باستثناء البيت الملكي في «فرنسا». ولم يكن «الموزاكاويّون» على وِفاق أيضاً مع آل «كاستريوت» الذين لهم فوق أسلحتهم كذلك نسر ليس أبيض كنسر آل «دوكاجِن»، وإنّما أحمر، عِلاوة على أنَّه برأسيْن. ويُقال عن دوقات «جِن» إنَّ أصلهم يعود إلى زواج زعيمهم «جِن» قديماً بإحدى جنيّات الجبل، في حين أنَّ آل «كاستريوت» المتحدّرين من الـ «كاستريوثيين»، كما يُكتب اسمهم في بعض الأحيان، هم الأسياد الألبانيّون الوحيدون الذين يستخدمون اللآلئ أختاماً للتوقيع. ولو لم تتدخّل السيّدة المسنّة الشّريفة «ديادامين» قبل عاميْن خلال حفل زواج

Twitter: @ketab_n

كونت «كاشنيه» لوقع بين رجال آل «كاستريوت» ورجال آل «دوكاجِن» عِراك ربّما كان أدّى إلى مذبحة.

لقد ظنّ أسياد «أربيريا» أنَّ في وسعهم إخماد جميع هذه الخصومات بالمصاهرات. غير أنَّ هذه المصاهرات المُلقاة فوق ذلك البحر المتلاطم لم تكن، كما قُلت، سوى بضع أقواس قُزَح نادرة لا تلبث الهاوية أن تبتلعها. فزواج كونت «توپيا» الأكبر من «كاترين»، أخت «بلشا الثاني»، والرِّباط بين هذا الأخير وبين «كوميتا»، ابنة أمير «لوربيه»، وكذلك الرِّباط بين أخيه «جرجي بلشا» وبين «ماري»، ابنة «أندريه موزاكا»، لم تمنع قطّ هذه البيوت الأميريّة العريقة الثلاثة من أن تنسى سريعاً مَزاهِرَ الأعراس وتلجأ إلى طبول الحرب.

وما كانت المصاهرات مع الأغراب أسعدَ هي الأخرى على الإطلاق. فمنذ أن خطب الأمير الألباني «تنوش توپيا»، والد الكونت الحالي «شارل»، بنت ملك «فرنسا»، «إيلين دانجو»، التي اقتيدت للزّواج في «بيزنطة»، والمصاهراتُ التي كانت قد تمّت على أرض «أربيريا» تؤول إلى مصائر مكدِّرة. فلم يخشَ «تنوش توپيا» قطّ وهو يخطف الأميرة الفرنسيّة أن يجلب على نفسه في آن معاً صواعق «فرنسا» و«بيزنطة»، وكلتاهما أقوى بكثير منه. وقد عاش خمس سنوات مع «إيلين» ورُزق منها طفلين. ثمَّ كان يومٌ تظاهر فيه حَمُوه ملك «فرنسا» بأنَّه نسي الإهانة ودعاهما كليهما، الزّوج والزّوجة، إلى «باريس» بقصد المصالحة في الظّاهر، ولكنْ للقضاء عليهما في الحقيقة. ولا أزال حتّى اليوم كلّما نظرت إلى شعارات آل «توپيا»، إلى الزنابق البيضاء الخاصّة بسلالة «أنجو» تحت الأسد المتوّج، ذكّرتني ـ لا أدري لماذا ـ بالصُّلبان القائمة في مقبرة.

لم يكن إصهار «أرانيت كومنين» إلى الأسرة الإمبراطوريّة في

Twitter: @ketab_n

«بيزنطة» أقلّ اضطراباً، غير أنّه، في حين كان الزّواج في حالة «تنوش توبيا» مثارَ خلاف، كان هنا، على العكس من ذلك، مُلَطِّفاً لحدّة الخصام. وكان أصل نزاع «أرانيت كومنين» مع «بيزنطة» هو قاعدة «أوريكوم» البحريّة القريبة من «لورييه». فقد استغلّ الأمير الألباني الوضع الصّعب في «بيزنطة» وقدّم وثائق قديمة تشهد بأنَّ «أوريكوم» كانت، قبل أن تحتلّها «روما» وتقوم بإصلاحها، ملكاً لـ «أربيريا». ولم ينتظر «أرانيت» نهاية المفاوضات مع الإمبراطور فهاجم القاعدة التي كانت تحميها حامية من المرتزقة «الإسكندنايين» واحتلّ نصفها. فما كان من «بيزنطة» إلّا أن أسرعت في تزويجه إحدى أميراتها لتحافظ، على الأقلّ، على نصيبها من القاعدة وعلى الشّواطئ الصّغيرة المجاورة التي كانت جزءاً من ملكيّة الإمبراطور الخاصّة. ويُقال في الأيّام الأخيرة إنَّ «الأتراك» يبذلون قصارى جهدهم لإقناع «أرانيت كومنين» بتسليمهم القاعدة. وقد وعدوا الأمير العجوز بإعطائه مبالغ ضخمة، بل حتّى إحدى أميراتهم زوجة لابنه، إذا هو أعاد إليهم نصيبه من القاعدة، أيْ نصفها. ويبدو أنَّ «أرانيت» قد أجابهم بأنّه لن يُبادل «أوريكوم» حتّى بأجمل أميرة في الدنيا. وقد يكون قال لهم إنَّ هذه القاعدة هي أجمل أميرات الأرض والبحار في آن.

أصبح «الأتراك» في الأيّام الأخيرة أكثر ظهوراً غالب الأحيان في مناطق «البلقان». فهم يُصادَفون على الطُّرُق الكبرى وفي الأنزال بانتظار الإذن بالدخول عند أبواب المدن، وفي الأسواق الموسميّة، وعلى ضفاف الأنهار، وفي كلّ مكان. ويظهرون تارة بشكل بعثات سياسيّة أو اقتصاديّة، وبشكل مبعوثين تجاريين طوراً، وتارَة بشكل زُمَر من الفنّانين المتجوّلين وأخرى بشكل طوائف دينيّة أو فصائل عسكريّة أو حتّى بشكل متوحّدين غريبي الأطوار. وتُسمع أكثر فأكثر

Twitter: @ketab_n

أغانيهم البطيئة وكأنَّها مُثْقَلة بنعاس شديد في كلّ مكان على وجه التقريب. وإنّ تصرّفهم ومشيتهم الرّشيقة وحركاتهم في ملابسهم الفضفاضة التي تبدو أنَّها صُمِّمت بقصد إخفاء حالة أطرافهم، وعلى الأخصّ لغتهم التي تنتهي كلماتها، بعكس بطء أغانيهم، بما يشبه ضرب الهراوات، كلّ ذلك يبعث في نفسي قلقاً غامضاً. ويتحوّل هذا الشّعور في داخلي إلى نوع من الرّعب عندما أفكّر في أنَّ هؤلاء النّاس يُخفون أموراً كثيرة. ولم يكن بلا سبب ألَّا يرتسم في عمائمهم ولا في سراويلهم المنتفخة وأرديتهم أيّ خطّ ظاهر الوضوح، مستقيماً كان أو مُنكسِراً أو حتّى مُنحنِياً. فكلّ شيء باهت ومصنوع بطريقة يقدر معها أن يُبدِّل شكله باستمرار. ومن الصّعب أن يُميِّز المرء تحت مثل هذه الملابس ما إذا كانت إحدى الأذرع تحمل في طرفها خنجراً أو زهرة. ولكن ماذا يُرتجى بعد كلّ حساب من أمّة تُخفي منبعها بالذّات: النّساء؟

لقد أُتيح لي منذ بعض الوقت أن أرى إحدى فصائلهم وكانت في طريقها للعودة إلى قاعدتها بعد أن اشتركت في نزاع بين سكّان «أوهري» وآل «بلشا». وكانت وحدةً من المرتزقة، من أولئك الذين يحاربون إلى أَجَل ولقاءَ أجرٍ يُحَدِّدهما عَقْد مكتوب. فمنذ عدّة أعوام والأمراءُ الألبانيّون يستدعون، على غرار جميع أمراء «البلقان» وأباطرة «بيزنطة»، فصائل تركيّة يستخدمونها في خصوماتهم. وبهذا الشّكل ظهروا في المناطق البلقانيّة. وقد كانت تعتريني الرّعشة لرؤيتهم سائرين صفّاً على الطّريق، ويدور في خلدي أنَّهم ذاهبون ولكنّهم سوف يحملوننا معهم. فعيونهم كانت تنظر حولها بجشع ظننت معه مذّاك أنّي أرى فيها مهود أطفالنا وبيوتنا وجثثنا وجبالنا وقد جرفتها الأمواج بعد إحدى الكوارث. وقلت في نفسي إنَّهم يتظاهرون

Twitter: @ketab_n

بالرّحيل، غير أنَّ شيئاً لن يقتلعهم أبداً من هنا. وراودتني رغبة في الصّياح: «من الذي استدعاهم؟».

أجل، من كان أوَّل من استدعاهم؟ وإنّي لأخشى أن تطرح هذا السّؤالَ يوماً جميعُ شعوب «أوروبا». ولن يكون ذاك سؤالاً، بل سيكون صرخة مكروبة. ولن يعرف أحد أن يجيب وسيسعى كلّ إنسان إلى إلقاء الذَّنْب على الآخرين. وها هي ذي الحقيقة قد بدأت تحتجب. ويبدو أنَّها تلفّعت هي الأخرى بالحرير التركيّ.

وها هو ذا عَرْض الزّواج يأتينا الآن من هناك. وقد كانت وجوه المبعوثين العُثمانيّين تطفح بِشْراً وهم يجتازون النّهر بالعبّارة للذهاب إلى الكونت مُحَمَّلين بالهدايا النفيسة. وكانت سراويلهم الفضفاضة تُخلِّف وراءها حفيفاً حريريّاً خدّاعاً. وكانوا بالمقابل متجهّمين لدى رجوعهم مثل سحابة سوداء. وكانت الحنّاء التي خَضَّبت لحاهم القصيرة تتوهّج بحُمرة مُتَوَعِّدة. فلقد رفض سيِّدنا أن يُقدِّم لهم يد ابنته. ولكيلا يُفسد صَفْوَ العلاقات فقد احتجّ بصغر سنّ الأميرة واعتلال صحّتها. والحقّ أنَّها كانت في السابعة عشرة، وقد أبلّت تماماً من مرضها على الرّغم من بعض الشحوب في وجهها. بيد أنَّ الكونت، وهذا غنيّ عن البيان، لم يكن راغباً بأيّ ثمن في هذه المصاهرة.

* * *

Twitter: @ketab_n

(١٦)

تواصلت أعمال بناء الدّعائم ليلاً نهاراً طَوال الصّيف. وما إنْ حُفِرتْ حُفَر الأسس إلى أن بلغت الصّخر حتّى بدأ وَضْعُ كُتَل الحجارة الكبيرة. وكانت قد استُخرجت من مَقْلَع بعيد قديم ونقلتها العربات إلى هنا فأُنزلت في الحُفَر بوساطة بَكْرة ضخمة كان يُسمع صريرها بلا توقّف. وكانت البكْرة تُنزِل على التوالي إلى الأسفل الحجارةَ والدِلاءَ الملأى بالملاط مربوطةً بسلال ضخمة.

وكانت قد حُفرت بالجوار حُفَر للكلس، وكانت ملابس عدد كبير من العاملين بالدّعائم قد ابيضّت بكاملها. غير أنَّ اللّون السّائد ظَلَّ لونَ الوحل.

كان المسؤول عن الورشة نفسه يقضي ساعات بأكملها فوق السقّالات يرافقه أعوانه. وكان العمل جارياً بلا توقّف بحيث ترتفع دعائم الجِسْر فوق مستوى المياه قبل مَقْدَم الخريف وانتفاخ نهر الـ «أويان» اللّعين. ولم يكن ينبغي أن تؤدّي أقنية التّحويل وظائفها إلّا خلال فصل الجفاف؛ فبعد المطرات الأولى تصبح سعتها غير كافية لاستيعاب منسوب النّهر فيعود قسم من المياه إلى مجراه الأوّل بالضرورة.

وكلّما كانت تظهر غيمة في السّماء كان رأس المسؤول عن الورشة يستدير بقلق نحو الأفق.

Twitter: @ketab_n

والحقّ أنَّ جميع النّاس كانوا ينتظرون مَقْدَم الخريف. وقد ثار فضول بعضهم لمعرفة ما سيفعله النّهر عندما يصطدم بالعقبات التي كانت قد نُصبت في وجهه. وكان آخرون يهزّون رؤوسهم مُتيقّنين من أنَّ نهر الـ «أُويان» اللّعين سيعرف كيف ينتقم. فلم يكن يحمل هذا الاسم عبثاً.

كان النّاس ينتظرون وصول النّهر انتظارهم شخصاً طال غيابه في منزل حدثت فيه أثناء ذلك الغياب تغيّراتٌ خطيرة الشّأن.

أخذت النّهارات تقصرُ. وانقضى الصّيف وبدأ الخريف من غير أن تحدث أمور مشهودة بشكل استثنائي. فقد غرق أحد البنّائين في حفرة الكلس وبَتَرت البكْرَةُ أطرافَ اثنيْن آخريْن، إلّا أنَّ ذيْنِك الحدثيْن لم يكونا شيئاً يُذكر بإزاء ما كان النّاس يَحْذَرون.

* * *

Twitter: @ketab_n

(١٧)

كان الجميع ما يزالون ينتظرون أمطار الخريف الأولى عندما جرى النّهر ذات صباح أشدّ كَدَراً من المعتاد. وكانت عاصفة قد انفجرت في مكانٍ ما على الجبال.

وكانت المياه الجديدة تسيل إلى الأمام بحماسة شديدة وكأنَّها طليعة أحد الجيوش، غير أنَّ أقنية التّحويل كانت تمتصّها بلا عناء مانعةً إيّاها من إغراق الأشغال.

ومن الواضح أنَّ المواجهة بين النّهر وبُناة الجِسْر كانت وشيكة.

وانقضت بضعة أيّام مُنقشِعة، ثمّ تسربلت السّماء من جديد بالغيوم. وأخذ مطر رقيق منتظم بالانهمار، وهمّه، على ما يبدو، ألَّا يترك في العالم زاوية جافّة واحدة. ومضى بُناة الجِسْر يواصلون عملهم تحت المطر مُتَسَربلين معاطفَ واقيةً سوداء ومظرهم يبعث على الارتياب. وكان النّاس يقولون: «كيف لا يخافون يا تُرى، لماذا لا يهربون وقد أخذ النّهر الآن يستيقظ؟».

غير أنَّ النّهر لم يكن متعجِّلاً قطّ على ما يظهر. وكان يستجمع قواه بالتّأكيد قبل أن يُهاجِم.

صمدت الأقنية بعناء هذه المرّة لدَفْق جديد من المياه العَكِرة، ومع ذلك فإنَّ نهر الـ «أُويان» اللّعين لم يكن قد سفر بَعدُ عن وجهه

Twitter: @ketab_n

الحقيقي. وكانت العجوز «أَيْكون» تقول إنَّ النّهر سوف يُلاعب الجِسْر لعبة الهرّ والفأر.

استمرّ المطر بضعة أيّام، وبدا تَقَهْقُرُ النّهرِ الآن أشدَّ احتداماً بالوعيد من تَقَدُّمه. وكان البنّاؤون أنفسهم، هم الذين حافظوا على هدوئهم حتّى ذلك الوقت، يُخْفون قلقهم بصعوبة.

كان يُنْتَظر من يوم إلى يوم، بل من ساعة إلى ساعة، أن ينحدر النّهر بقوّة، بيد أنّه لم تكن قد صدرت عنه بعدُ أيّة علامة. وكان النّاس يقولون: «أوه! إنّه لا يُدعى عبثاً نهر الـ «أُويان» اللّعين، وإنّ في جعبته لَحِيَلاً كثيرة».

والواقع أنَّ العلامة صدرت في الوقت الذي لم يكن أحد يتوقّع فيه صدورَها. فبعد أيّام المطر انقشع الجوّ على حين غِرّة. وترامت سماء مُشرقة من كلّ صوب ولم يخطر ببال أحد أنَّ النّهر الذي لم يُقَدِّم أيّة علامة من علامات الغيظ خلال أيّام المطر الأخيرة قد ينحدر الآن تحت هذه السّماء الزرقاء. بيد أنّه حدث في ذلك الحين بالضبط أن انقضّ.

فلقد فاضت المياه، في هجمة غاضبة، عن سدود الأقنية الصّغيرة وجرت في المجرى القديم. وما هي إلّا ثوانٍ حتّى اجتيح كلّ شيء، وأُغرقت الحُفَر والأقنية. وبعد أن شكّلت كومةً بشعة من الألواح وأطراف الأوتاد وكلّ أنواع الحُطام التي جُرفت إلى حيث يعلم الله، انقضّت المياه بعنف مُضاعَف على الدّعائم التي لم تكن قد أُنجِزت. وضربت الجِسْر مواجَهةً ثمّ تراجعت فحاصرته عن يساره واندفقت عن يمينه وأزبدت مسعورةً لحظةً عند قدميه، ولكنْ من غير أن تتمكّن من تحريك القواعد الحجريّة. وفي هذا الوقت فقط لاحظ النّاس البنّاء واقفاً فوق الجِسْر الصّغير المؤلَّف من الألواح واصلاً بين الدّعامتيْن،

Twitter: @ketab_n

وكان يرقب بانتباه مجرى نهر الـ «أُويان» اللّعين الصّاخب. ولسوف يذهب بعضهم إلى حدّ القول بأنَّه كان يضحك بين آونة وأخرى.

كان واضحاً أنَّ نهر الـ «أُويان» اللّعين قد غُلب في أوّل مواجهة له مع البَرْدَعة الحجريَّة التي كانوا يُلبسونه إيّاها. وكان الحُطام الذي جرفه، إلى جانب عاملٍ سكران لم يُعرف كيف حملته الأمواج، قليلاً جدّاً في حساب انتقامه. فقد استمرّت المياه في المسيل بعيداً وهي أشدّ كَدَراً منها في أيّ وقت مضى، وبدا نهر الـ «أُويان» اللّعين الذي كان يحمل وحلاً صلصاليّاً وكأنَّه مُدَمّى.

وأخذ النّاس ينظرون إلى الأسنان الحجريّة النّاشبة في ظهره وساورهم شعور بالرّثاء لحاله. وكانوا يقولون: «لسوف يزداد انتفاخاً ويَبِلّ من مرضه الصيفيّ، وسيُحدِث عندها مصيبةً!».

غير أنَّه انقضى أسبوعان، وانتفخ نهر الـ «أُويان» اللّعين أكثر فأكثر، وغارت غضون مياهه واشتدّت حشرجته، إلّا أنَّ الجِسْر لم يُصبْ على الرّغم من هذا كلّه بأي ضرر.

* * *

Twitter: @ketab_n

(١٨)

أقبل الخريف أبردَ ممّا كان في أيّ عام آخر. وأخذ نهر الـ «أُويان» اللّعين يصفو بعد اندفاقه الأوّل، فاستعادت مياهه لونها المعتاد بين الأزرق الفاتح والأخضر، بيد أنّنا كنّا الآن نحدس اكتشاف الغضب والشّعور بالمهانة وراء تلك الصّبغة.

كانت أشغال الجِسْر تتواصل. وكان البنّاؤون الحاملون الحجارة ودِلاء المِلاط يتحرّكون كالأشباح فوق الألواح التي ألقَوْها من عمود إلى آخر. وفي الأسفل كان النّهر يواصل مسيله مُنْجِزاً عمله في الوقت الذي كانوا هم يُنجِزون فيه عملهم.

لم يحدث أثناء الخريف ما يستحقّ الذِّكْر. غريق جرفته المياه الله يعلم من أين أقبل يصطدم بالعمود الأوسط ويحوّم عدّة مرّات حوله، ثمَّ اختفى. وفي ذلك اليوم بالضبط ارتسم بشكل غامض في رُكام العوارض الخشبيّة وألواح السقّالات قوسٌ كان يربط بين دِعامتين من دعائم الجِسْر. وكان القوم يتهيّأون في الظاهر لوضع العَقْد الأوّل في المكان المخصّص له.

* * *

Twitter: @ketab_n

(١٩)

على عتبة الشّتاء ظهر مع موجات البرد الأولى دراويش متشرِّدون في كلّ مكان. وكان قد رُؤي منهم عددٌ على الطّريق الكبرى وفي «نُزُل الروبيريْن» وأبعدَ من ذلك أيضاً، في «غابة الحَوْر». وقال المسافرون القادمون من الإمارات المجاورة إنَّهم لمحوا أشخاصاً منهم هناك أيضاً، بل زعم بعضهم أنَّهم التَقَوا دراويش أتراكاً في شارع «أغناتيا» القديم. وأنَّهم كانوا ينهبون الطّرقات زرافاتٍ صغيرةً أو ثُناءَ أو وُحداناً في أغلب الأحيان، وهم حُفاة وأقدامهم يغطّيها الوحل.

وصباح أمسِ رأيت اثنين منهم في ساعة مبكّرة على الطريق المقفرة وهما يتقدّمان بحسب مشيتهما الخفيفة وأحدهما على بُعد خطوتيْن من الثاني، وكدتُ أصرخ وأنا أرى أسمالها المعفَّرة بالغبار الذي كانت تُلقيه عليها ريح الشّتاء: لماذا؟

مَنْ هم أولئك الدراويش المتشرِّدون ولماذا ظهروا في وقت واحد في كلّ مكان من «البلقان» على عتبة هذا الشّتاء؟

* * *

Twitter: @ketab_n

(٢٠)

كان الرّيف مغطّى بالصّقيع. وقد تلقّى «نُزُل الروبيريْن» زيارة مغنّييْن متجوّليْن قضيا فيه ثلاث ليالٍ. وكانا قد سَرَّيا عن النّزلاء بأغانٍ خفيفة جديدة مؤلّفة عن نهر الـ «أُويان» اللّعين. بيد أنّها كانت أغانيَ سيّئة الفأل. فقد كانت تقول إنَّ ربّات الأنهار والينابيع وجنّيّاته لن ينْسَيْن أبداً ما لحق به من إهانة. وقد يتأخّر انتقامهنّ، إلّا أنّه آتٍ.

وربّما راقت هذه الأغاني كثيراً جماعة «عبّارات وأطواف»، ولكنْ ما الفائدة وقد خسروا الآن المعركة ولن يكون في مقدور ألف أغنية خفيفة من هذا النّوع أن تقلب الأمور لمصلحتهم. فلم يُسمع في الواقع قطّ أنّ بناء جِسْر أو أيّ صَرْح قد قطعته الأغاني.

ولم تكن قد صدرت عن جماعة «عبّارات وأطواف» أيّة أمارة على أنَّهم أحياء منذ رحيلهم مهزومين مُخْتَنقين. وكان من الممكن أن أظنّ أنَّهم اختَفَوْا عن وجه هذه الدنيا، ولكن ها هي ذي أغاني «نُزُل الروبيريْن» تُعيدهم إلى خاطري.

أَفَتُراهم استنكفوا عن العِراك أم هم بانتظار ساعتهم؟

* * *

Twitter: @ketab_n

(٢١)

دعا سيّدنا في نهاية الفصل على عادته بعض الصيوف المميَّزين إلى حفلة صيد كان يُقيمها كلّ عام تقريباً. في الموعد نفسه في «قَفْر الذئب».

وكان ينضمّ إلى السّادة الجيران وتابعيهم أمير «جنوب أربيريا» القويّ، «جِن بوشپاطا». وجاء من «الشّمال» ابنا «بلشا العجوز» «جورج بلشا» و«بلشا الثاني» مع زوجتيهما الكونتة «ماري» والكونتة «كوميتا»؛ ثمّ حضر على التّوالي سيّد «زادريم»، «نقولا زكاري» الذي يحمل على أسلحته فَهْداً، والبارونان «پول غروپا» و«الش مترانغا»، وأوّلهما سيّد «أوهري» و«پوغراديك»، والثاني سيّد «كاراستا».

ومضت حفلة الصّيد، كما في كلّ عام، بكلّ الأبّهة المطلوبة. فقد أبْقَتِ الأبواقُ وصخبُ حوافرِ الخيلِ ونباحُ الكلابِ «قَفْرَ الذئب» مستيقظاً طَوال أربع وعشرين ساعة. ولم يُؤْسَفْ لوقوع أيّ حادث إذا استثنينا موت أحد الحائشين وقد بَقَرَ دبٌّ بطنَه، وعلى الأخصّ، وهذا ما كان موضوعَ القلق الرئيسي، التواءً في قدم «نقولا زكاري» لم يكن له، لحسن الحظّ، من مضاعفات.

استمرّ الجوّ صافياً. وفي العودة أخذ ثلج خفيف يتساقط، وإذ ذَرَّ الثّلجُ موكبَ الصيّادين فإنّه لم يَزِدْه إلّا جمالاً.

ولم يتلبّث المدعوّون إذ كانوا جميعاً على عجلة من أمر العودة

Twitter: @ketab_n

إلى ممتلكاتهم. وقد انتظر النّاس أن يُعْلَن عن بعض الخطوبات خلال الأيّام الثلاثة (وهذا بخلاف ما يجري في أيّة مناسبة أخرى) التي أَمْضَوْها على أراضي سيّدنا، بيد أنَّ شيئاً من هذا لم يكن. والحقّ أنَّ المدعوّين تحدّثوا على الأخصّ عن المشكلة الخطيرة التي كان يطرحها التهديد العثماني.

وبينما كانت الأحاديث تتواصل عبّرت الكونتتان «ماري» و«كوميتا» عن رغبتهما في الذهاب لرؤية أشغال الجِسْر. وقد وقعتْ عليّ مهمّة اصطحابهما وشرحتُ لهما بشكل إجمالي مختلف مراحل بناء جِسْرٍ، الأمر الذي لم تكونا تملكان عنه أدنى فكرة. وظلّتا برهة مشدوهتيْن بمرأى المعماريين الذين كان مجرى الماء يعجّ بهم على امتداده، وبالفوضى السّائدة في الأمكنة وقذارتها، وكذلك بتنوُّع اللّهجات المَحْكِيّة. ثمَّ إنّ «كوميتا» التي كانت منذ شهر في زيارة لوالدها في «لوربيه» ذكرت المخاوف التي يُثيرها الوضع في قاعدة «أوريكوم» البحريّة؛ ثمَّ أخذتا تتداولان طويلاً معارفهما عن البيوتات الكبرى، ولا سيّما بيت دوقة «دوربيس»، «جان»، التي كانت تهيّئ نفسها للزّواج ثانية بعد أن ظلّت مدّة أرملة، وفي الختام عن «كاترين» ابنة حميّها، «بلشا العجوز»، الأثيرة التي كان يُحدَس بسهولة مدى حَسَدِهما لها. ولقد جهدتُ في إعادة دفّة الحديث عن قاعدة «أوريكوم»، غير أنَّ ذلك كان شاقّاً جدّاً إن لم نقُل مستحيلاً.

كان نهر الـ «أويان» اللّعين يهدر تحت أقدامنا بأمواجه البيضاء، غير أنَّ الزائرتيْن لم تَبْدُوَا مهتمَّتيْن به ولا بالجِسْر القائم فوقه. وكانتا قد عادتا إلى الحديث عن معارفهما، وعن علاقاتهما العاطفيّة، وعن أعمال تدلّ على الطّيش والخفّة، وعلى الرّغم من وقوفي بعيداً عنهما فقد بدت بعض نُتَف من الحديث راغبةً في بلوغ أُذُنيّ بالقوّة. ومرّت

Twitter: @ketab_n

لحظة أخذتا فيها تتهكّمان على الشخص العثماني الذي كان قد تقدّم بخطبة ابنة كُونْتِنا. وكانتا تُقَهْقِهان وهما تَذْكُران «الصّهر التركيّ»، كما كانتا تدعوانه، وتتخيّلان سرواله المنتفخ، وتتماسكان بالأيدي كيلا تنزلقا إلى الحُفَر، ثمَّ تجهدان وسط ضحكات جديدة في لفظ اسمه، «عبد الله»، الشيء الذي كانتا تقومان به وهما تحرِّفانه أكثر فأكثر، ولا سيّما حينما كانتا تجهدان في إيجاد صيغة تحبّبيّة له بإضافة (تاء ساكنة) بدل الهاء في آخره.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٢٢)

في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) وفي الأسبوع الأوَّل من كانون الأوّل (ديسمبر) استمرّ رصد بعض الدراويش في كلّ مكان. وكنت أملك جميع الأسباب للظنّ بأنَّ أولئك الأشخاص المُنَفِّرين لم يكونوا سوى جواسيس لـ «الدولة» الآسيويّة الكبرى التي قدّمها القَدَرُ جارةً لنا.

وكانوا يجمعون بالتّأكيد المعلومات عن تُربة البلاد وطُرُقها، وعن الأحلاف والخصومات أو عن العداوات القديمة بين الأمراء الألبانيّين أنفسهم. وحين كان يُقدَّر لي أن أرى أحدهم فقد كنت أستشعر أنَّه لم يكن هناك من وقت أشدّ مؤاتاةً لجمع المعلومات عن الأحقاد من هذا البَرْد وهذه الرّيح المثلجة في شهر كانون الأوَّل (ديسمبر).

وكنت أتذكّر على الرّغم منّي بعضاً من مقاطع الحديث الذي دار بين الكونتيْن السّاحرتيْن فيَحْدُث لي أحياناً أن أردّد لنفسي مثلَ معتوهٍ: «عبد الله».

* * *

Twitter: @ketab_n

(٢٣)

كان صباحاً مَطِيراً من شهر كانون الأوّل (ديسمبر). وبدت السّماء، وقد أطبقت كثيراً، وكأنَّها تريد خنق الأرض. وكان المطر يتساقط ناعماً بطيئاً بلا أمل. وفوجئت وأنا أسير بحذاء النّهر بأنَّ البنّائين كانوا قد تركوا عملهم. ولم يكن ذلك قد حدث قطّ على وجه التّقريب. فلا المطر ولا البَرَد جعلاهم قطّ يتخلَّوْن عن مهمّتهم. غير أنَّ ما زادني فضولاً أيضاً هو رؤية زمرة من النّاس وقد اعتَلَوا السقّالات أمام القنطرة المركزيّة وهي لم تكد تُنْجَز. وميَّزت من بينهم عن بُعد المسؤول عن الورشة ومُساعِديْه. وكانوا ينحنون باستمرار نحو العَقْد الحجريّ ويمدّون رؤوسهم إلى أسفل فينظرون إلى دعائم الجِسْر ثمَّ يتجمَّعون من جديد لاستئناف حديثهم.

سأل أحدُهم الأبلهَ القادم على عجل من هناك: «جيلوش، ما الذي حدث؟».

قال:

ـ الجِسْر، بُمْ، الجِسر، أوه، يا إلهي...

وما هي إلّا بضع ساعات حتّى عُلم ما كان. فقد أُنزل الضرر ببعض مواضع الجِسْر طَوال اللّيل. وكانت دعائم الوسط والقواعد، ولا سيّما العَقْد الذي أُنجز للتوّ، قد أُصيبت بشكل يستعصي على التفسير بما يشبه خدوش المخالب. وأخذ مساعدا المعماريّ، وقد

Twitter: @ketab_n

شحب وجهاهما حتّى حاكيا لون الشّمع ولاح في عيونهما وميض من الذُّعر، يجهدان في الحدْس بالوسائل التي استُخدمت لإحداث هذه الأضرار. وكان المعماريّ المتلفّع بمعطفه الواقي من المطر قد سرّح بصره ـ جامدَ الوجه ـ إلى البعيد وكأنَّ الحقيقة ينبغي أن تأتيه من هناك.

قال أحد قاطعَيِ الحجارة آخر الأمر: «لكنّها ليست آثار أدوات يا سيّدي».

قال المعماريّ:

- كيف؟
- ليست ضربات مطرقة ولا ضربات مِهدّة، ولا...
- ما هي إذن؟

وهزّ قاطع الحجارة كتفيْه ونظر إلى الآخرين. وكانت وجوههم تُحاكي لون التّراب.

وهمس أحدهم:

«من بضعة أسابيع، في «نُزُل الروبيريْن» سُمعت أغانٍ تقول شيئاً عن جنّيّات الماء...».

- كفى.

بهذا صاح المسؤول عن الورشة وانحنى بحركة مفاجئة فوق القوس المتضرّرة ليُلقي نظرة أخرى على الخراب. وبقي على تلك الحال وقتاً طويلاً، وإذ لم يكتشف أيّ أثر لمطرقة أو مِنحات أو إزميل فقد أخذ، هو أيضاً يرتجف فرَقاً، شأنه شأنُ الآخرين.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٢٤)

انتشر الخبر عمّا حدث للجِسْر بسرعة لا تُصدَّق.

وأخذ النّاس يتذكّرون المغنّييْن المتجوِّليْن ويستعيدون ذكرى ملابسهما ووجهيهما، وجهدوا على الأخصّ في استذكار كلمات أغانيهما التي راحوا يشوِّهون قوافيها كما تَحْني الرّيح رؤوس القصب.

كانوا جميعاً يقولون: «مَنْذا الذي كان سيصدِّق أن تتحقّق نبوءاتهما؟ إنّهما لم يكونا مغنّييْن، بل كانا ساحريْن».

أخذت الشائعة تنتشر في الجوار ليلَ نهارَ مُغلِّفةً الجِسْر بسرّ أشدّ كثافة فأشدّ.

وفي اللّيل كان ينصب عَقْده الوحيد الذي أُصيب بوحشيّة فيبدو أَسْوَدَ فوق صفحة النّهر. ومن بعيد كانت المواضع المُصْلَحة والمِلاط والكلس الطريّ اللّذان يغطّيانها تُذكِّر بضمادات طَرَفٍ أُصيب بكسور. وبهذا الجسم المشوَّه كان الجِسْر يحمل الشّؤم.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٢٥)

أُتيح لي في الفترة نفسها أن أستضيف في منزلي مدّة ليلتيْن راهباً عجيباً يُدعى «بروكهارت» كان عائداً إلى «أوروبا» من «بيزنطة» حيث أُرْسِل في مهمّة.

وكنت أقرأ على الضوء الخفيف الذي خلّفه النّهار الغارب عندما جاءني أحدهم يقول إنَّ آخر عبّارة كانت قد نقلت رجلاً يبدو أنَّه راهب، وإنَّه كان يطرح أسئلة في لغة لا يفهمها أحد. وطلبتُ أن يُحمل إليّ.

كان طويلاً نحيفاً شديدَ نُحول الوجه، وكانت ملابسه مغطّاة بطبقة من الغبار كثيفة بشكل لا يُصدَّق.

قال لي وهو يشير بإصبعه إلى ملابسه وكأنَّ الطّريق كانت ملتفّة حوله: «لم يسبق قطّ أن رأيت طريقاً بمثل هذا الطول. وهُمْ بصدد إصلاحها على امتداد طولها تقريباً».

راقبتُ بدهشة الغبار الذي كان يغطّيه وأسرعتُ في إصلاحِ حاله. وقلتُ له: «إنَّها طريق «أغناتيا» القديمة هذه التي تقوم شركةُ أشغالٍ عامّةٍ بإصلاحها».

وهزّ رأسه ونزع طيلسانه مُحدِثاً سحابة من الغبار.

«إنَّهم هم الذين يقومون ببناء هذا الجِسْر.

- أجل، لقد رأيته وأنا مُقْبِل».

Twitter: @ketab_n

كان يبدو أكثر طولاً من غير طيلسانه. وكان من الهُزال بحيث لو شبك ذراعيه لذكّر بأحد رموز الموت. وسأل:

«إنَّ أحد تفرُّعات الطّريق يقود إلى قاعدة «لورييه» البحريّة، أليس كذلك؟».

وقلت في نفسي: من المؤكّد أنّه جاسوس.

وأجبته: «أجل».

وعلى كلّ حال فإنَّه قلّما همّني أن يسألني عن قاعدة «لورييه»، فهي الآن تخصّ ناساً غيرَنا.

ودعوتُه للجلوس فوق جلد الخروف الطّويل الوبر المبسوط قرب المدفأة ونصبتُ مائدة واطئة.

«تأكل بالطّبع شيئاً من الطّعام، فلا بدّ أنَّك جائع».

تلفّظتُ بهذه الكلمات بصوت متردِّد وكأنَّني خشيتُ ألّا أستطيع إشباع شهوة هذا الهيكل العظمي غير المتناسب. وإذ بدا أنّه أدرك ما يجول في خاطري فقد ابتسم وهمس في أذني:

«إنّي ضيفك. و«السلايون» يسمّون الضيوف بكلمة «غوست» (gost)، وقد بحثوا عنها في اللّفظ الإنكليزي (Ghost) الذي يعني كما تعرف «الشبح». وعليه فإلى جانب كوني ضيفاً فإنّني أيضاً شبح، خيال، روح من الأرواح». وابتسم. «وككلّ روح فأنا أحتاج إلى لحم. ها! ها!».

وشرع يضحك بطريقة لم يكن بالوسع إلّا أن تُثير الذُّعْر.

قلتُ له: «اخدمْ نفسَك وتصرّف وكأنَّك في بيتك».

استمرّ في الضّحك برهة من غير أن يصرف نظره عن المائدة. وقد بعث فيَّ التّفكير بأنّني سأقضي الأمسية مع رجل على معرفة بأمور اللّغة، مُتعةً حقيقيّةً.

Twitter: @ketab_n

«ماذا من جديد؟». سألتُه ذلك مُحتفِظاً بموضوع اللّغة إلى وقت لاحق.

وفتح ذراعيه وكأنَّه يقول: لا شيء خارق للمألوف.

«في «أوروبا»، كما تعرف، تتواصل الحرب بين «فرنسا» و«إنكلترا» ويبدو أنَّها ستستمرّ حوالَيْ مئة عام. وأمّا «بيزنطة» فإنّها تغلي بالمؤامرات والانقلابات.

- كما هي الحال على الدّوام.

- أجل، كما هي الحال على الدّوام. فقد انتهت منذ قليل الاحتفالات بالذكرى الأولى للانتصار على «البلغاريين» وتمزيق جيشهم. وعليه، فإنَّ الجوّ يُنْذِر بالطّبع بالانفجار.

- تمزيق الجيش «البلغاري»؟ ما الذي تقصده؟

- كيف، ألا تعلم؟ إنّه حدث مشؤوم يحتفلون به بأُبَّهة في كلّ عام».

روى لي «بروكهارت» في بضع عبارات مُقتضَبة المذبحة الكبرى التي حلّت بالجيش «البلغاري» المهزوم بناء على أوامر الإمبراطور «البيزنطي». فلقد سُمِلت أعين خمسة عشر ألف جندي «بلغاري» كانوا قد وقعوا في الأسر. وأكّد قائلاً: «تَعْلَمُ أنَّ ذلك هو العقاب الرسمي في «بيزنطة». وقد أَبْقَوْا على بصر مئة وخمسين رجلاً لتوجيه تلك الجيوش العمياء نحو العاصمة «البلغاريّة». وظلّت هذه الكتلة من الرّجال بالثّقوب السّوداء تحت جباههم تتقدّم ليلَ نهارَ باتّجاه «بلغاريا».

وزاد «بروكهارت» متعجِّباً وهو يَزْدَرِد قطعة كبيرة من اللّحم: «أَمْرٌ فظيع، أليس كذلك؟».

واستشعرتُ أنّه كلّما كان يُمعن في الأكل فإنّه، بدلَ أن يكتسيَ

Twitter: @ketab_n

بعض اللّحم، كما قال مازحاً، كان يزداد هُزالاً وشحوباً.

قال: «إنّ انتقام «الدول» الكبيرة كبير».

وتحدّثنا بعض الوقت في السّياسة. وكان يوافقني التّفكير في أنَّ «بيزنطة» قد شاخت وأنَّ الخطر الرئيسيّ في عهدنا مصدره «الدولة التركيّة».

قال: «لم يكن النّاس يتحدّثون، في كلّ الأنزال التي حَلَلْتُ بها، إلّا عن ذلك».

قلت:

- وجميع النّاس يَصْدُرون بالطّبع عن افتراضات لا جدوى منها عمّا انتزعهم للمرّة الأولى من صحاريهم، بيد أنَّ أحداً لا يفكّر في ما ينبغي عمله لوقف زحفهم.

قال «بروكهارت»:

- أجل، إنَّ النّاس عندما لا يكونون مُهَيَّئين للتصرُّف بإزاء شرّ من الشّرور فإنّهم يكتفون بالبحث عن أصله. وبالنّسبة إليكم أيضاً، كما أظنّ، فإنّ هؤلاء الأتراك يشكِّلون ولا ريب تهديداً وشيكاً نسبيّاً؟

- نعم، إنّهم على أبوابنا.

- صحيح. فأنتم هنا عند عتبة «أوروبا».

وسألني عن بلادنا فلم يلبث أن لاح لي أنّه لا يملك سوى معلومات غامضة بشأنها. وشرحت له أنّنا متحدِّرون من الـ «إيلّيريين»، وأنَّ «اللّاتينيّين» كانوا يُسَمُّون بلدنا «أربانوم» أو «ألبانوم» أو «المملكة الألبانيّة» ويَدْعُون سكّانها «الأربانيين» أو «الألبانيين»، وهو الشيء نفسه. ثمّ قلت له إنّ النّاس عندنا لم يلبثوا أن أطلقوا على بلدنا بعد ذلك ببضع سنوات اسماً آخر. فهم يسمّونها الآن «شكيپري» من

Twitter: @ketab_n

«شْكِيپونْييه» التي تعني «سرب نسور، جماعة نسور»، في حين يُطْلَق على سكّان البلاد اسم «شْكِيپيتارْييه»، وهو من المصدر نفسه.

كان يصغي إليَّ بانتباه شديد. وحدّثتُه متابعاً شروحي عن لائحة «صِربيّة» قديمة بأسماء الأمم والرّموز المقابلة لها، وكان قد أرسلها إليّ راهب «سلوينيّ»، وقد رُمز فيها إلى «الألبانيّ» بنَسْر (داهار)، وإلى «الصِربيّ» بذئب، وإلى «الكرواتيّ» ببومة، وإلى «المجريّ» بفهد، وإلى «الرومانويّ»[١] بقطّ.

كان يهزّ رأسه باستمرار، وعندما قلتُ له إنّنا، نحن «الألبانيّين»، كنّا و«الإغريق» أقدمَ شعوب «البلقان»، فإنّه ظلّ برهة ساهماً ومِلْعَقته قائمة في يده. ولقد فهمتُ جيّداً أنَّ عليّ أن أثبت له قليلاً تأكيداتي فذكرتُ له بهذا الصدد اللّغة الألبانيّة قائلاً إنَّها كانت مُعاصِرة لليونانيّة، إنْ لم تكن سابقةً عليها، وأنَّ هناك شواهد على الكلمات التي اقترضتها هذه اللّغة من لغتنا.

وقلت له: «وهي ليست كلمات عاديّة، بل أسماء آلهة وأبطال».

كانت عيناه تلتمعان. وقد ذكرت له كلمات «زيوس» و«ديميتير» و«تيتيس» و«أوذيسة» المشتقّة من كلمات ألبانيّة هي «زيه» (صوت) و«ديه» (أرض) و«ديت» (بحر) و«أودهييه» (طر يق)، وعندها شاهدتُه يُفلت مِلْعَقته.

قلتُ له: «كُلْ أيّها الشّبح»[٢]، وأنا أنظر بهلع تقريباً إلى مِلْعَقتِه، الأداةِ الوحيدة التي بدا أنَّها تربطة بعالم الأحياء.

---

(١) نسبة إلى (رومانيا) وتمييزاً له عن (رومانيّ) نسبة إلى (روما). (المترجم).

(٢) يجب أن نتذكّر ما كان منْ شرح (gost) بمعنى الضيف وأختها (ghost) الإنكليزيّة التي تعني الشبح... (المترجم).

Twitter: @ketab_n

«ما قلتَه لي غريب حقّاً!».

تريّثتُ قليلاً ثمّ قلتُ:

- إنَّ حرمانك من أسماء آلهتك معناه انتزاع جزء من روحك. وعلى أيّ حال فلسنا الآن بصدد مثل هذه الحسابات. فلغتانا، الألبانيّة واليونانيّة، هما اليوم مهدَّدتان من اللّغة التركيّة تهديدَ غيمةٍ سوداء.

ووافق بهزّة من رأسه. ثمّ قال:

- ليست الحرب بين اللّغات أقلّ مأساويّةً من الحرب بين النّاس.

وندمتُ على خوضي هذا الموضوع. واستأنفتُ بلطف بعدها بقليل وقد غرقتْ نظرة كلّ منّا في نظرة الآخر:

- إنَّ اللّغة التركيّة بلاحِقتها الشّهيرة «لِكْ»[1] لَتُشْبِهُ وطأتُها علينا وطأةَ هراوة رهيبة.

قال:

- ما أشدّ تعاستكم.

وهززتُ رأسي بوجوم، وقلتُ: «وليس من أحد يعي مبلغ الخطر. فأمراؤنا مستمرّون في خصوماتهم ومشاحناتهم».

- حتّى الآن «والأتراك» على أبوابكم؟

وهززتُ رأسي بالإيجاب وقلتُ: «والأدهى أنَّهم لا يزالون يستخدمون في مشاجراتهم مرتزقة من «الأتراك».

قال: «آه!»، وابتعد عن المائدة بحركة مباغتة وكأنّه أفلت من شَرَك.

لقد أصبح الآن حرّاً في أن يعود شبحاً.

---

(١) تستخدم اللّغة التركيّة هذه اللّاحقة في آخر الكلمة للدلالة على النّسبة. ويكفي أن نُذَكِّر بكلمة (سَفَرْ بَرْلِكْ) الشهيرة في بعض أقطارنا العربيّة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

(٢٦)

بعد رحيل «بروكهارت» بثلاثة أيّام أُلْفِي الجِسْر ذات صباح مُتضرِّراً أيضاً بشكل فادح. ولم تكن القضيّة هذه المرّة قضيّة تشقُّقات وخدوش؛ فقد انتُزِعت حجارة ضخمة من دعائمه الرّئيسيّة. وأغرب ما في الأمر هو أنَّ بعضها كان قد اقتُلع تحت مستوى الماء، وقد أثار ذلك، إلى جانب الهلع المتزايد الذي تبعه، هواجسَ ضخمةً لدى البنّائين. فقد كان إصلاح الأقسام المتضرِّرة مستحيلاً قبل انخفاض المياه المُقْبِل.

أثار هذا التدخُّل الثاني الذي قامت به العفاريت المائيّة الذُّعْرَ العام. فلم يكن من حديث غير ذلك. وعلى الرّغم من حنق المسؤول عن الورشة ومساعديه (كان رأس المعماريّ ينزلق كالبرق من طرف الجسْر إلى الطرف الآخر) فإنَّ وتيرة الأشغال لم تلبث أن انخفضت وبدأت تنتشر من الضّفاف المُخْصِبة التي اتّخذت الآن مظهراً عبوساً موجةٌ من الضجيج تُثير الرعدة، مثلما انتشر من قبل وحل الحُفَر ـ باستثناء أنَّ تلك الأصوات كانت أسرع انتشاراً ممّا كان عليه الوحل وأبعد مدى.

وشرع العمّال في ترك الورشة. وكانوا يغادرون ليلاً فارّين من هذا العمل الذي يعتبرونه ملعوناً وحقائبهم فوق أكتافهم، بل مُتَخَلِّين عن أجرهم.

Twitter: @ketab_n

وازداد في أغلب الأحيان، في تلك المناقشات التي لا تنتهي عن هذا الموضوع، القولُ بضرورة هدم الجِسْر قبل فوات الأوان.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٢٧)

المسؤولُ عن الورشة نفسهُ رحل بغتة ذات صباح قبل الفجر. ولم يعلم أحد سبب رحيله ولا الجهة التي ذهب إليها. فلم يكن قد قدّم أيَّ تفسير عن ذلك. وكان قد جَلَد في العشيّة مساعِديْه بسوطه (كانت تلك المرّة الأولى التي يفعل فيها ذلك على ما يُقال) ثمَّ توارى.

كانت الأشغال فوق الجِسْر تتواصل الآن ببطء شديد جدّاً. وكان «جيلوش» يطوف مذهولاً حول الكوخ مُدْنِياً رأسه من حين إلى حين من ثقب الباب. واستمرّ البنّاؤون في حمل الحجارة ودِلاء المِلاط إلى موضع الدعائم. وكان مساعدا المعماريّ يَظهران هنا وهناك وآثارُ الجَلْد باديةٌ في وجوههما. وكان أحدهما، الطّويل النحيف، يذهب ويجيء والشّعورُ بالذلّ من تلك الآثار بادٍ عميقاً فوق سَحنته؛ وأمّا الآخر، القصير البدين، فقد بدا على العكس مُتهلِّلاً، وكان يسعى إلى إبرازها ما أمكن وكأنَّها علامات استحقاق.

كان من جرّاء غياب المسؤول عن الورشة أن فاقم التفكّك والخلل. وكان الجميع مقتنعين بأنّه لن يعود أبداً وأنّه لم يبقَ بعد الآن غير انتظار قرار هدم الجِسْر، أو على الأقلّ تركه تحت رحمة المياه.

إلَّا أنَّ المسؤول عن الورشة عاد بغتة تماماً كما رحل، وبصحبته هذه المرّة جماعة صغيرة من الأشخاص ذوي السِّحَن المتجهِّمة. وما إن وصلوا حتّى توجّهوا إلى المواضع المتضرِّرة وتفحّصوها بدقّة

Twitter: @ketab_n

ساعات طِوالاً. وأخذوا يراقبون الخدوش والتجاويف المتخلّفة عن الحجارة المقتلعة ويهزّون رؤوسهم وهم يقومون بإشارات غير مفهومة. وخلع أحدهم ملابسه وسط الدّهشة العامّة وغاص في النّهر ليرى على ما يبدو الموضع الذي اقتُلعت منه الحجارة تحت مستوى المياه.

وفعلوا الشيء نفسه في اليوم التالي والذي بعده. وكان يوجِّه المهمّةَ رجلٌ طويل القامة نحيل شديد الاحدداب. وكان يشكو بالتّأكيد من التهاب في مفاصل رقبته لأنَّه لم يكن يكاد يستطيع تحريك رأسه. ونظراً إلى الاحترام الذي كان يُبديه له الآخرون، ومن ضمنهم المعماريّ الذي لم يكن هذا الشّعور بالتّأكيد علامةً بارزةً فيه، كان يُحدَس بأنّه لا بُدّ أن يكون أحد أرباب شركة الجسور والطُّرُق الرئيسيين.

وإذ رأته العجوز «أَيْكون» فقد قالت: «انظروا كيف حنى الله سبحانه وتعالى هذا اللّعين. وهكذا سوف يَحني جميع الذين يحاولون بناء الجسور. لسوف يَحنيهم كالجسور نفسها إلى أن تلتقي رؤوسُهم أقدَامهم، لأنَّ قُدَماءنا لم يقولوا عبثاً للشيطان: لِتبتلِعْ قَدَمَيْك بنفسِك!».

* * *

Twitter: @ketab_n

(٢٨)

دُعيتُ على عجل إلى منزل سيّدنا. وكان فيه اجتماع ضمّ البعثة المكلَّفة شقّ الطُرُق والمسؤول عن الورشة وأمينيْ سرّ أميرنا. وكانوا جميعهم مقطّبي الوجوه. بانتظار مَقْدَم الكونت.

لم أستطع التكهُّن بالغاية من ذلك الاجتماع، هل سيُتّخذ قرار بالتخلّي عن الأشغال؟ لقد كانت الحُظوظ قليلة جدّاً بشأن موافقة أميرنا على إعادة حتّى الجزء اليسير من المال الذي دُفع له على الحساب. ولم يكونوا عارفين به.

ظلّ أفراد البعثة وكأنَّهم مشدودون إلى كراسيهم العالية المساند. وقلتُ في نفسي لماذا لا يُوضَع حَدٌّ لمثل هذه الاجتماعات؟ والحقّ أنّي كنت أجدها مُزْعجة، وكان يزيدها إزعاجاً تكليفي ترجمة كلام رجال الجسور والطُرُق العجيب، الأمر الذي كان يُصيبني بصُداع لا يُفارقني مدّة يوميْن. وفي نظري كان الفريقان، المائيّ والأرضيّ على السّواء، متعادليْن، بيد أنَّ الفريق الأوّل كان يتكلّم على الأقلّ لغة نقيّة ودقيقة. وبالمقابل فإنّه بعد ساعة من النقاش مع مسؤولي الجسور والطُرُق كانت الطاولة تبدو وكأنّها اكتسب غُبار لغتهم المُفَكَّكَة الأَوْصال، على غرار ما كان الحُطام يُغطّي ورشتهم.

قلتُ في نفسي إنّني سأتدبّر أمري كيفما دار الحال في هذه المرّة

Twitter: @ketab_n

أيضاً، غير أنَّه ينبغي أن أختلق بأيّ ثمنٍ عُذراً للتهرُّب في المرّة القادمة.

كان الزوّار يلتفتون بين الفينة والفينة إلى الباب الذي ينبغي أن يدخل منه الكونت. وكان من الممكن بالطّبع تفسير تأخُّره بأنّه لم يكن على عجلة من أمر استقبالهم. وإذ كان الزوّار يزدادون تَوَتُّراً فقد أخذوا ينقرون على الطّاولة بأصابعهم. وكانت عيونهم مشدودة إلى أيديهم وإلى بعض ألواح من المقوّى مُخَرْبَشٍ عليها جميعُ أنواع الرّسوم.

دخل الكونت في نهاية الأمر. ووجّه إليهم تحيّة فاترة بحركة من رأسه وجلس في صدر الطّاولة وقال:

«إنّني مُصْغٍ إليكم».

كان من الواضح أن أوّل المتكلّمين لا بدّ أن يكون الرّجل الطّويل المُحْدَوْدِب. وتنحنح مرّتين أو ثلاثاً لجلاء حَنْجَرته وكأنَّه يبحث عن النبرة الملائمة، وبدا على وشك الكلام، ثمَّ عدل.

وترجمتُ للمرّة الثانية: «إنّني مُصْغٍ إليكم».

تنحنح رئيس البعثة من جديد، ثمَّ قال بصوت جافّ:

«هناك أشخاص يريدون تدمير جِسْرنا».

ارتفع حاجبا الكونت وظلّا برهة على هذا النحو. وكانا يُعَبِّران عن الدّهشة، بل عن الانتظار على الأخصّ، ثمَّ عن بعض التهكُّم.

واستأنف الزّائر:

«لم يُلْحِق عفاريت الماء الضرر بجِسْرنا، كما يُزْعَم، وإنّما الذين ألحقوه به هم البَشَر».

وظلّ وجه الكونت جامداً.

ورمى الآخر ببصره على الملاحظات التي كانت أمامه. واستأنف

Twitter: @ketab_n

قائلاً: «في مقدورنا أن نقول لك على الفور مَنِ الذي تحوم حوله شكوكُنا».

صدرتْ عن كتفَيْ سيّدنا حركةٌ كأنَّها تريد أن تقول: ماذا يهمّني من شكوككم؟ وأسرع مُخاطِبه يضيف وقد أخطأ على ما يبدو تفسير تلك الحركة:

«أرجوك أن تُحسن فهم ما أقول. لسنا نتّهم رجالك على الإطلاق». وجرض بريقه وأضاف: «بل لسنا نتّهم الجواسيس الأتراك. لا، إنْ شكوكنا تستهدف أشخاصاً آخرين».

قال «سترس جيكوندي» للمرّة الثالثة:

- إنّني مُصْغٍ إليكم.

كان صرير ريشتيْ أمينيْ سرّ الكونت - وكانا يُسجِّلان ما يدور من حديث - يزيد السكوت إثارة.

قال الآخر: «إنَّ شركة «عبّارات وأطواف» هي التي تسعى إلى هدم جِسْرنا». وتسمّرت عيناه النفّاذتان على الكونت. وكان ظهره المُحْدَوْدِب يزيد نظرته ارتياباً.

وصمد سيّدُنا ناعمَ البال. فقد كان واضحاً أنَّ هذه القصّة لم تكن تهمّه. إذ كان في حينها مشغولاً بتطوّر علاقاتنا بجيراننا الأتراك، ولم يكن يفكّر قطّ في ما يجري حول هذا الجِسْر.

واستأنف الغريب قائلاً:

«بديهي جدّاً أنَّهم بانشغالهم بالمحافظة على مصالحهم فإنَّهم لم يتمكّنوا قطّ، ولا يمكن أن يتمكّنوا من القبول ببناء الجسور. ولقد أطلقوا فكرة تدمير هذا العمل حتّى قبل أن يَشْرَعوا في تصرّفهم الإجراميّ. وقد نشروا بوساطة مغنّين مأجورين الخرافةَ القائلة بأنَّ عفاريت المياه لم يكونوا يطيقون الجِسْر وأنَّه ينبغي هَدْمُه».

Twitter: @ketab_n

وترجَّح رأسه الممدود فوق الطّاولة محاولاً فهم الانطباع الذي كان اكتشافه قد خلّفه فينا. وعليّ أن أقول إنَّه كان، فيما يخصّني، قد أقنعني. فلقد سبق في الواقع أن كوّنت بعض الشكوك بهذا الصدد. فإن كان بُناة الجِسْر الموجود ممثّلوهم هنا أمامنا قد اشتَرَوْا قبلاً رجلاً مُصاباً بداء الصَّرْع وقارئ طالعٍ متجوِّلاً لإطلاق فكرة بناء الجسْر فلماذا لا يُصَدَّق أنّ في وسع شركة «عبّارات وأطواف» شراء مغنّيَيْن لنَشر فكرة هَدْمِهِ؟

وتابع الغريب:

«ينبغي أن تعلم يا سيّدي الكونت أنَّ الذين لا يُطيقون الجِسْر ليسوا عفاريت المياه بل الأرواح الجشعة التي تسكن المسؤولين عن إدارة شركة اللّصوص التي هي «عبّارات وأطواف».

قال الكونت ضاحكاً: «ها! ها! إنَّهم يقولون الكلامَ نفسَه عنكم».

اكتسى جبين مخاطَبه ببقع صغيرة حمراء. وقال: «لم يسبق قطّ، على ما أعلم، أن أغرقنا إحدى عبّاراتهم. ولا سبق قطّ أن دمّرنا أحد أرصفة الرّكوب العائدة إليهم».

قال سيّدنا: «هذا صحيح. لم يسبق قطّ على الأقلّ أن سمعتُ عن أمور كهذه».

وقاطعه الآخر قائلاً: «ولن تسمع أبداً. بيد أنّك تعلم يا سيّدي الكونت أنَّهم فعلوا المستحيل لمنع بناء هذا الجِسْر. وعندما رَأَوْا أنفسَهم عاجزين عن منعه، باختصار، عندما تحطّمت مكائدهم أمام نزاهتك وشرفك، فقد فكّروا في هدم الجِسْر. وعلّقوا آمالهم في البدء على سخط الأمواج، غير أنَّهم إذ لم تُسعفهم الطبيعة فقد دفعوا عملاءهم إلى العمل».

استراح مجدّداً وقتاً قصيراً وكأنَّه يُتيح لسامعيه أن يسجّلوا ما قال.

Twitter: @ketab_n

وكان واضحاً أنَّ المائيّين لم يكونوا قد سلّموا، كما كنتُ متأكّداً بهزيمتهم. وكانوا يُجازون الأرضيّين من جنس عملهم. وكان يبدو أنّ الصراع بين تلك المصالح المتناقضة كان أضرى من المعركة التي روى لي «الهولّنديّ» خبرها بين التمساح والنَّمِر.

«وإليك يا سيّدي الكونت في كلمتين خلاصة أمر هذه القضيّة».

كان سيّدنا بوجهه الجامد مستمرّاً في مراقبته الرّجل المُحْدَوْدِب. وإذ بدا له في نهاية الأمر أنَّ هذا أنهى كلامه فقد سأل:

«ولكن ما الذي تطلبونه منّي أيّها السّادة؟».

وغرس الآخر نظره في نظر الكونت وكأنَّه يسأله: ألا تفهم حقّاً ما الذي نطلبه؟ ثمَّ قال بجفاء: «نطلب معاقبة المذنبين».

فتح سيّدنا ذراعيه. وكان يَنْفُذ من القمريّات الزجاجيّة الملوّنة في أعلى النّافذة نورٌ مزرقٌّ يُشعِر بأنّه يمتصّك، بأنَّه يحملك إلى حيث لا أدري. وظلّ الكونت مُحتفِظاً بذراعيه مفتوحتيْن. وقال في نهاية الأمر:

«من غير المُجْدي سؤالي أنا عن ذلك. فلم يسبق قطّ أن تدخّلتُ في أعمالكم. وليس في نيّتي بعدُ أن أفعل الآن ذلك».

- علينا نحن إذن أن نحذف المذنب من الوجود؟

- كيف؟

انبثق من السّكون صريرُ ريشتَيْ أمينيْ السّرّ الحافلُ بالأنين. وغدا النّور الشّاحب المزرقّ خانقاً. وقال الآخر مُنْحَنِياً إلى الأمام ورأسه يكاد يُلامس الطّاولة: «ماذا؟».

كان شعرُ المسؤول عن الورشة الأمغرُ يلمع وكأنَّه شرارات خامدة.

وسأل الكونت: «هل ألمعتَ إلى جريمة قتل؟».

وأخذ كلّ منهما يتفرّس في الآخر. وقال الزّائر: «إلى عِقاب».

Twitter: @ketab_n

ـ آه، أجل، إلى عِقاب.

وران صمتٌ تواصَلَ حتّى بعد أن توقّف احتكاك الرّيشتيْن. ولم يكن الجوّ ليُحْتَمَل.

كان الجميع ينتظرون خلال ذاك التوقّف أن يبادر سيّدنا إلى الكلام. وقد فعل ذلك بسَحْنة لامُبالية وشبه مُزْدَرِية وليس فيها ما ينمّ عن أيّ تعلُّق، وكأنَّه يتحدَّث عن العالم الآخر.

«إذا كان خصومكم قد غذَّوْا، كما قلت، فكرة تدمير الجِسْر باستخدام الأسطورة فإنّ في وسعكم تماماً أن تُهيِّئوا بدوركم لفكرة عِقاب المذنبين بالطّريقة عينها، عن طريق الأسطورة بالضبط».

غدت عيون الغرباء محمومة. وقال زعيمهم بعد لأْيٍ: «فهمت قصدكم يا سيّدي الكونت».

نهض وسطُ جسده عن المقعد الذي كان يجلس عليه، في حين ظلّ ظهره ورأسه مائليْن إلى الطّاولة وكأنَّهما لا يستطيعان الانفصال عنها.

وما هو إلَّا وقت قصير حتّى استأذنوا بالانصراف. وحذوتُ حَذْوَهم.

كان الجوّ بارداً في الخارج. وقد أثلج الرذاذ أُذُنيَّ. ولم أستطع في أثناء الطّريق أن أطرد من خاطري النقاش الذي كان قد دار. فقد حُكي بشكل غامض عن أمر تكتنفه الظُّلُمات. وكان كلّ شيء قد قُنِّع بعناية. وكنت قد شاهدت مرّة رجلاً مقتولاً على الطّريق الكبرى على بُعد نحو مئتي خطوة من «نُزُل الروبيريْن». وكان قد غُطِّي بشرشف وتُرك على حافَة الطّريق. ولم يكن أحد ليجرؤ على رفع الشّرشف والنّظر إلى جروحه. فلا بدّ أن يكون مرآها فظيعاً.

ومزّقتْ نومي إرْباً طَوالَ اللّيل فكرةُ أنّي كنت قد شاركت رغم

Twitter: @ketab_n

أنفي في اتّفاق مشؤوم. وفي الصّباح كان رأسي مضطرباً. وفي الخارج كان كلّ شيء رطباً بشكل مُحْزِن. وكان يتساقط مطر عجوز ثقيل كالحديد. وقلت في نفسي «يا إلهي، ماذا بي يا تُرى؟» وساورتني رغبة في البكاء، في البكاء بدمع سخين ثقيل كهذا المطر.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٢٩)

كان المطر مستمرّاً بالانهمار منذ أسبوع بالحدّة المثبّطة التي كان عليها في اليوم الذي جرت فيه تلك المقابلة الأخيرة. ويبدو أنَّ السّماء تمطر على هذا النّحو مرّة كلّ أربع سنوات. حتّى ليُخيَّل أنَّها تصبّ على الأرض قِدَمَها برمَّته.

لم تتوقّف أشغال الجِسْر يوماً واحداً على الرّغم من رداءة الجوّ. وكان البنّاؤون قد استأنفوا مهمّتهم. وقد أخذوا يعملون بشكل محموم عند العَقْديْن الثاني والثالث. وكان الجوّ من البرودة بحيث كان المِلاط يتجمّد في بعض الأحيان فيضطرون إلى عجنه بالماء الحارّ. وكثيراً ما كانوا يُلقون فيه ماءً مِلْحاً أيضاً.

وكان نهر الـ «أُويان» اللّعين قد زاد انتفاخاً واقْشِعْراراً، بيد أنَّه لم يُهاجِم الجِسْر مرّة جديدة.

والنّاس جميعاً كانوا بانتظار الكيفيّة التي ستتصرّف الآن بها عفاريت المياه. وكان الشّيوخ يقولون: «المياه لا تنسى قطّ. الأرض من جهتها سخيّة مُتسامحة؛ وأمّا الماء فلا».

وكان الجِسْر يُحْرَس بعناية في أثناء اللّيل، على ما يُقال. ولم يكن الأرصاد يُرَوْنَ في أيّ مكان، غير أنَّهم كانوا يسهرون مختبئين بالتّأكيد داخل السقّالات.

Twitter: @ketab_n

(٣٠)

ما إن أمّنت البعثة سير الأمور حتّى رحلت غير مخلّفة وراءها إلّا واحداً فقط من أفرادها. وكان ذاك أشدَّ الزمرة الصّغيرة صمتاً، وهو رجل ذو وجه مُتهدِّل وعينيْن مائعتيْن لا لون لهما. وكان يظلّ بعيداً متظاهراً بعدم التدخُّل في شيء، وكثيراً ما كان يتنزّه وحيداً فوق الضفّة. والله يعلم لماذا رأى «جيلوش» الأحمق من الخير أن يتحرّش به ويُهدِّده في كلّ مرّة كان يلتقيه فيها. وكان الرّجل المتهدّل ينظر بدهشة إلى الأبله الحانق ويبذل قصارى جهده لتحاشيه.

وألفينا أنفسنا ذات يوم وجهاً لوجه بالمصادفة، وإذ كان يذكُر على ما يبدو أنّه رآني في منزل الكونت فقد توجّه إليَّ بالحديث. وحيّا أحدنا الآخر وتنزّهنا بعض الوقت معاً. وقد أخبرني أنَّه كان جمّاعة للحكايات والعادات الشعبيّة. ورغبتُ في أن أسأله عن علاقة ذلك ببناء الجسور غير أنّي عدلت، وربّما كان عدولي على الأخصّ بسبب عينيْه الرّطبتيْن اللّتيْن كانتا تُثيران الشّعور بالتعاطف.

وحضر بعد بضعة أيّام لزيارتي في الدّير فتداولنا طويلاً في موضوع الحكايات والأساطير البلقانيّة. وكان يعرف عدداً قليلاً منها. وكنت أتوقّع أن يسألني عن العادات والخرافات، ولم أكن قطّ قد أخطأت. فقد فعل ذلك حقّاً. وحدّثته عن بعض عاداتنا ورويتُ له بضع حكايات قصيرة بعض الشيء بدا أنّه تلقّاها بالتقدير. وأمّا عن

Twitter: @ketab_n

الخرافات فقد قلتُ له إنَّ منها اثنتيْن لا تقلاّن جلالاً عن أهمّ أساطير «الإغريق».

وتعكّر بغتة صفو ماء نظراته الهادئ على الرّغم ممّا بدا من بَذْلِه الجهد للإبقاء على عدم تأثّره. وسألني قائلاً: «هل تستطيع أن تَرْوِيَهما لي؟».

قلت: «بالتّأكيد، بل بكلّ سرور».

وفي مثل لمح البرق تذكّرت الاهتمام الذي كان قد أبداه أفراد بعثتهم حيال الخرافات، كما تذكّرت أقوال سيّدنا خلال المقابلة. ولم أعد الآن أرتاب في أنّي أتعامل مع جمّاعة للخرافات. وقلت بعد قليل: «الحياة، كما في كلّ الأساطير الكبرى، تُحاذي الموت».

كنّا نتحدّث بلغة مختلطة لاتينيّة جرمانيّة وكان هو يخلط بها بعض الألفاظ السلايّة القديمة. وإذ جهدت في أن أقتضب ما أمكن فقد رويتُ له الأسطورة الأولى، أسطورة «قسطنطين» خارِجاً من قبره لإعادة شقيقته التي كانت قد زوّجت في منطقة بعيدة. وقد قلتُ له: «يبدو أنّ هذه الحادثة قد جرت في الواقع منذ حوالَيْ مئة عام في الإمارة المجاورة».

قال: «إيه، إيه».

وأوضحت قائلاً: «إنّها تُعرف أيضاً باسم أغنية العَهْد المقطوع أو أغنية الـ «بَسّا». ولكلمة «بَسّا» في اللّغة الألبانيّة معنى خاص».

وحدّثته عن الـ «بَسّا» مُشَدِّداً بشكل خاصّ على أن أُوضِح له كيف أنّها ليست في حياتنا مفهوماً أخلاقيّاً وحسبُ، وإنّما هي إجراء شرعيّ له قواعده وموادّه وتفسيراته.

«إنَّ العَهْد المقطوع عندنا هو، على هذا النّحو، أَمرٌ سامٍ، هل تفهم ما أقول؟».

Twitter: @ketab_n

وردّد قائلاً: «البَسّا» لاوِياً شفتيْه وكأنَّ هذه الكلمة قد جرحت فمه.

وتابعتُ: «تُدعى تلك الأغنية إذن أغنية الـ «بَسّا». إنَّ «قسطنطين» كان قد قطع عهداً، أي «بَسّا»، لأُمّه بأن يُعيد إليها بأيّ ثمن ابنتها «دورنتين» إذا ما استشعرت حاجة إلى وجودها».

وردّد قائلاً: «بأيّ ثمن، وبعدُ؟».

- تأتي بعد ذلك الرّحلةُ المفجعة التي قام بها الميّت والحيّة على حصان، والكَرْب الذي تُثيره.

قال وهو يكاد يختنق صرخة: «رائع جدّاً. الموت والحياة على الحصان نفسه. إنّها لحقيقة خالدة. أجل، أجل. إنَّ في كلّ كائن حيّ جزءاً من الموت، وفي كلّ ميّت جزء من الحياة. وهذه الأغنية جميلة جمالاً مُذْهِلاً.».

كنت سعيداً جدّاً لرؤيته يقدّرها بحيث طرد ذلك من خاطري كلّ ارتياب فيه. فلقد كان بالتّأكيد جمّاعة أساطير، بل إنّه ليبدو ذا معرفة عميقة بأمرها.

واستأنفتُ قائلاً: «إنَّ جميع شعوب «البلقان» تدّعي أُبوّة هذه الأسطورة، إلّا أنّها تخصّنا ولا ريب بالنّظر إلى أنَّ للـ «بَسّا» مغزًى سامياً عند «الألبانيين» وحدهم».

قال: «أجل، بلا شكّ. بلا أيّ شكّ».

- أَضِفْ إلى ذلك أنَّ الأمر كان قد حدث بالفعل، كما قلتُ لك، غير بعيد من هنا في أيّام الزيجات الأولى المعقودة خارج المنطقة.

سألني بعد برهة: «والأسطورة الأخرى؟».

- الأخرى تماثل الأولى مأساويّةً، وهي تتعلّق بحبس امرأة «داخل جدار» في أسس إحدى القلاع.

Twitter: @ketab_n

- ماذا تقصد بالـ «حبس داخل جدار؟».

قلت وأنا أحاول بلا جدوى إكمال شرحي بالحركات:

«إنّ هذا العمل مشتقّ بالطّبع من كلمة جدار، ويدلّ بهذا المعنى على حبس إنسان داخل جدار. إنَّه نوع من أُضحية تُقَدَّم إلى جُدُر بناء لتأمين وجوده بشكلٍ ما».

- كيف؟

وغام بصره. ولم يكن ذلك مجرّد كَدَر، فقد بدا أنَّ هاوية قد انفتحت فيه فجأة. قال:

- أُضحية؟

قلت ببرودة شديدة:

- أجل يا سيّدي، ولست أدري لماذا. إنّها واحدة من أقدم أساطيرنا.

كان الرّيق قد جفّ في فمه، فقال بصوت ضائع وكأنَّه يستجدي عوني:

- هل لك أن تقصّها عليّ؟

على الرّغم من الجهد الذي كان الآن يبذله لكي يبتسم فقد بدا لي فجأة أنّه أصبح بعيداً عنّي. وظننت أنّي حَدَسْتُ بما حمله على الانفعال. ولقد كان ذلك في مكانٍ ما بالقرب منّي. وكنت ألمسه تقريباً. وما هو إلّا قليل، قيل جدّاً، حتّى يظهر إلى النّور.

- إنَّها حكاية ثلاثة إخوة بنّائين كانوا يبنون جُدُر حِصْن، بيد أنَّ عملهم لم يكن يتقدّم لأنَّ ما كانوا يبنونه نهاراً كان يُهْدَم ليلاً.

- كيف؟

آه هوذا! إنّ سبب كَدَره أخذ ينكشف في نهاية الأمر. وكان

Twitter: @ketab_n

واضحاً وضوح الشّمس. إنّه المقارنة بين الحِصْن في هذه الأسطورة وجِسْرهم المهدوم ليلاً.

لم أعد أُطيق نظرته. واستأنفتُ قائلاً وكأنّني أتحدّث إلى نفسي:

- ماذا كان عليهم أن يفعلوا؟ وقال لهم شيخ مشهور بحكمته إنّ انهيار الجُذُر معناه أنَّ البنّاء يُطالِب، لكي يتماسك، بأُضحية. وعلى هذا قرّر الإخوة الثَّلاثة أن يحبسوا فيها واحدة من زوجاتهم.

قال بصورة آليّة:

- أُضحية.

وكرّرت:

- أجل، أُضحية. لأنَّ حبس شخص في جدار معناه قتله.

- قتله...

- بالتأكيد. إنّه يكفي حبس خيالِ شخصٍ في جدار لكي يموت، فبالأَوْلى...

قال بشبه انتحاب:

- أجل، أجل.

واستأنفت:

- بيد أنّه كان عليهم أن يختاروا واحدة من زوجاتهم. وتناقشوا في الأمر طويلاً وقرّروا التضحية بالتي ستحمل إليهم طعامهم في اليوم التالي.

قال:

- ولكنْ...

- لقد أقسموا على ألّا يُطْلِعوهنَّ على شيء.

- إيه، إيه...

- أنت ترى إذن، ها هي ذي الـ «بَسّا» تعود إلى الظهور. أو بالحري

Twitter: @ketab_n

الـ «بَسّا» والخيانة في وقت واحد.

- أجل، الـ «بَسّا».

بدا وكأنّ الكلمة سلخت زوايتيْ شفتيْه، وما كنت لأعجب لو رأيت خيطاً من الدّم ينبثق منهما.

وساورتني رغبة في أن أقول له إنّ دافع الـ «بَسّا» يؤكّد هنا أيضاً، كما في حال الأسطورة الأولى، الأُبوّة الألبانيّة للأغنية، غير أنّه كان في وجهه ما يشبه تعجُّلاً مشؤوم الطّالع دفعني أنا أيضاً إلى الكلام بسرعة.

«في اللّيل كشف اثنان من الإخوة، البِكْر والأوسط، لزوجتيْهما أمر العَهْد فانتهكا بذلك الـ «بَسّا». وأمّا الأصغر فقد حافظ على العهد».

قال:

- آه!

وكرّرتُ وأنا أبتلع ريقي بصعوبة:

- أجل، لقد انتهك الأَخَوان الـ «بَسّا».

وكان الوقت قد حان لكي أُوضِح له أنّه يُقابل قولَهم في الأغنية «انتهكوا الـ «بَسّا» عبارةٌ معناها بالتحديد «انتهكوا الدِّين»، «المعتقَد»، الأمر الذي لا معنى له في السّياق ويعود إلى الترجمة الخاطئة للكلمة الألبانيّة «بَسّا» بالكلمتين «مُعتقَد» و«دِين»، غير أنّني رأيت في وجهه أنَّ الإثارة قد جاوزت جميع الحدود. فقد قال في صيحة مكتومة وهو يمسك بيدي:

- وبعدُ؟

- أقبل الصّباح، وعندما أرادت الحماة كالمعتاد أن تُرسِل إحدى كَنّاتها لحمل الطّعام إلى أبنائها تظاهرت الأُولَيان اللّتان كانتا

Twitter: @ketab_n

تعرفان السّرّ بأنَّهما مريضتان. وعليه فقد ذهبت الصّغرى إلى الجِسْر وحُبِستْ داخل الجدار. هذه هي الحكاية بأجمعها.

ورفعتُ عينيَّ لأشاهد الانطباع الذي خلّفتْه فيه تلك الحكايةُ، وكان عليّ أن أكتم صرخة. فقد كانت عيناه قد فرغتا من كلّ الماء الرّاكد فيهما، وإذ أصبحتا مجوّفتيْن على هذا النحو فقد أشبهتا مِحْجَريْ تمثال. ومرّتْ ببالي صورة الموت. فلا بُدّ أن تكون عيناه على هذه الشّاكلة.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٣١)

منذ ذلك اليوم أخذ يبحث عنّي باستمرار، وما إن كان يجدني حتّى يبذل ما في وسعه لإعادة الحديث عن تَيْنِك الأسطورتيْن، ولا سيّما أسطورة المحبوسة داخل جدار. وكان يتكلّم عليها وكأنّها وقائع لم يمضِ عليها أكثر من خمسة عشر يوماً وأنَّه مكلّف بالتقصّي عنها. وأدخلني شيئاً فشيئاً في لُعبته. وكان يَسْكُنني طَوال ساعات مرأى مكانٍ قَفْر تحت شمس لاهية يستميت فيه ثلاثة بنّائين في بناء جدار لم يكن ينتهي على الإطلاق. وكنّا نستذكر الأسطورة فنحلّلها بعناية في أدقّ تفاصيلها ونسعى إلى استجلاء الجوانب الغامضة فيها وإقامة رباط منطقيّ بين عناصرها المتناقضة في الظاهر.

وكان يسألني عمّا إذا كان للزوجات الثلاث أولاد ويفترض أنَّ صغراهنّ لم تكن قد أنجبت، الأمر الذي يمكن أن يجلو بشكل أفضل دورَها ضحيّةً. بيد أنّي أكّدت له أنَّ الثلاث كنّ أمّهات، واعتذرت عن كوني لم أقصّ عليه نهاية الأسطورة، وهي القسم الذي كانت المرأة الشّابّة المحبوسة داخل جدار تتضرّع فيه إلى القتلة (كنت أستخدم مثل هذه الكلمات بإبلاغيّة متناهية) ألّا يحبسوا أحد ثَدْييها لكي تستطيع إرضاع طفلها. وبدا غاضباً لنسياني وأوصاني وهو يحرّك سبّابته بشكل شبه تهديديّ بألّا أرتكب أبداً مثل هذا الإغفال. وإذ كنّا كلانا غارقيْن في عالم عجيب فإنّ وعيده، الذي ما كنت لأغتفره في ظروف أخرى،

Twitter: @ketab_n

لم يترك في نفسي أيّ تأثير. ونقلتُ إليه كذلك اللّعنة التي كانت الضحيّة قد استنزلتها على البِناء في هذين البيتين من الشّعر:

«فلْيرتعشْ أيضاً هذا الجدار،

مثلما أرتعشُ أنا داخل هذا الحَجَر».

وقاطعني قائلاً: «هذا معقول من الوجهة التقنيّة. ولكن... بالنّسبة إلى الجسور... كلا، ليس من جِسْر لا ينبض، وذلك بصورة دائمة».

لم أدرك مغزى هذه المداخلة من جانبه، غير أنَّه حين أضاف بعد قليل أنَّ الفراغ المتروك بالضّرورة لحبس شخص يُضعِف في الواقع من صمود مبنىً ما، قاطعته بدوري قائلاً: «لكنْ قلْ لي أرجوك، هل أنت جمّاعة أساطير أم معماريّ؟».

قال:

- أوه، كلا. لا علاقة لي بأمور المعماريين، غير أنّي، لاشتغالي بالقرب منهم، تعلّمت بعض الأشياء عن عملهم.

وحضر ذات يوم منذ الصّباح الباكر لرؤيتي ومشاطرتي فكرة ساورتْه طَوال اللّيل. وكان لا يزال ناعساً ووجدت صعوبة في إدراك معنى أقواله. وبعد لْأيٍ فهمت ما يريد قوله: ففي اعتقاده أنَّ الأخ الأصغر لا بدّ أن يكون قد أخبر زوجته هو الآخر بكلّ شيء عشيّة الأُضحية.

قلتُ له: «كيف يمكن أن يكون ذلك؟ وكيف أمكن أن تذهب المرأة الشّابّة إلى الورشة وهي عالمة بالمصير الذي ينتظرها؟».

قال «كنت أتوقّع منك هذا الاعتراض، غير أنَّني فكّرتُ في كلّ شيء. نعم، في كلّ شيء.» واقترب منّي وتابع: «أَصْغِ إليّ. لقد قبلت أصغر الزّوجات وهي في كامل وعيها أن تضحّي بنفسها لأنَّ سَلْفتيْها وحماتها كنّ قد جعلْنَ حياتها لا تُطاق».

Twitter: @ketab_n

قلت: «هِمّ، إنّه لأمر أقرب إلى الغرابة».

وتابع قائلاً: «لا، ليس هناك ما هو غريب. لقد فضّلت الموت على تلك الجحيم الحيّة. أتتخيّل أيّ وضع تخلقه العداوة تحت سقف واحد بين السَّلَفات؟ آه، ولكنْ للحقّ، أنت راهب».

وسألته: «وهو، ما الذي تراه من تصرُّفه؟».

- تصرُّف مَنْ؟

- تصرُّف زوجها.

- لقد فكّرتُ في هذا أيضاً. إنّه كان عارفاً بما تُكابد، بيد أنَّه لم يفكّر قطّ في أنّها كانت تتألّم إلى حدّ تمنّي موتها. بحيث إنَّه حين رأى زوجته قادمة في صباح اليوم التالي وفي يدها السلّة التي فيها الطّعام جمد الدّم في عروقه. ماذا تقول؟

أجبتُ:

- لا أعرف ما أقول. قد تكون على حقّ، إلّا أنّه من الممكن جدّاً كذلك ألّا تكون الأمور سارت على هذا النّحو.

والحقّ أنّني كنت مقتنعاً بأنَّ الأمر لم يكن كذلك. وكان في كلّ مرّة يأتي فيها لزيارتي يحمل إليّ تفسيراً جديداً. بل لقد افترض ذات مرّة أنَّه إذا كان أصغر الإخوة قد امتنع عن إفشاء السّرّ لزوجته فإنَّ ذلك لم يكن بسبب العَهْد المقطوع وإنّما لأنَّه لم يكن يحبّها، وأنّ ذلك كان وسيلة للتخلّص منها. وأوحى في مرّة أخرى بأنّ الإخوة الثلاثة ربّما كانوا اتّفقوا على قتل زوجة أصغرهم، وأنّ كلّ المحاولات الدّائبة لبيان مطالبة الجُدُر بضحيّة كان هدفها الأوحد تسويغ جريمة القتل.

كانت جميع التّفاسير التي قدّمها للأسطورة مَبْنيّةً على الخِسَّة والغِشّ والخيانة، ولم أكن لأغفر لنفسي، في كلّ مرّة كان يفارقني

Twitter: @ketab_n

فيها، ضعفي في الإصغاء إليه. وإذ لم يكتفِ في المرّة الأخيرة بزرع الشّكوك حول الإخوة البنّائين الثّلاثة فجاوزهم إلى الحماة، بل إلى الضحيّة الشّابّة، وغمر بالوحل كلّ النّاس، حتّى القتيلة، فقد عزمت على أن أقول له بوضوح رأيي في مغزى تلك الأسطورة وأن أُفهِمه أنّني غير راغب في سماع افتراضاته المريضة.

وعلى هذا فقد انتظرته في اليوم التالي حاضراً لكي أقول له إنّه يحرص عبثاً على تلطيخ تلك المأساة العتيقة، وإنّ الأسطورة تقوم على الفكرة القائلة بأنَّ كلّ عمل، أو كلّ صنيع عظيم، يقتضي تضحية، وأنّ هذه الفكرة جليلة، وأنّها أحد عناصر الميثولوجيا الخاصّة ببعض الشعوب. والجديد والاستثنائي في أغنية شعبنا هو أنَّ التضحية فيها لا ترتبط بعمل حزبيّ ولا بحملة عسكريّة بل ولا بطقس دينيّ، وإنّما بمجرّد عمليّة بناء، وربّما كان تفسير ذلك هو أنَّ أجدادنا، «البلاجيين»، كانوا، باعتراف التّواريخ الإغريقيّة القديمة، أوّلَ البنّائين في الدنيا.

وكنت أريد أن أقول له أيضاً إنّ قطرات الدّم في الأسطورة لم تكن في الحقيقة إلّا سواقيَ من العَرَق، غير أنَّ العَرَق البشريّ، وبالأخصّ عَرَق الطبقات الوضيعة، يُقارَن بالدّم، وأنَّه غُفْل ونَكِرة، ولذلك لم يؤلِّف أحد نشيداً أو أغنية لتمجيده. وعليه فقد كان طبيعيّاً أن تتمثّل سيول العَرَق في هذه الأغنية الشعبيّة في بضعة خيوط من الدّم. وبديهي أنَّ كلّ أحدٍ يُضحّي بشيء من ذات نفسه وهو يتصبّب عرقاً، وقد ضحّى أصغر الإخوة بهنائه.

كنت أتحرّق إلى أن أقول له هذا كلّه وأموراً كثيرة أخرى، إلّا أنّه اختفى في اللّحظة التي كنت قد قرّرت فيها التحدّث إليه. ولم أره قطّ بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n

(٣٢)

ظلّت الأشغال في الجِسْر تتواصل على الرّغم من شدّة البرد. وكان العَقْد الثاني الكبير قد أُنجِز، على ما يبدو، وبدأ العمل الآن في الثالث. أقول «على ما يبدو» لأنَّ المرء لم يكن يميّز في الحقيقة شيئاً يذكر من الخارج وراء ذلك الخليط المتشابك من العوارض الخشبيّة.

وفي الأسبوعين التاليين لم يحدث شيء ذو بال. وكانت العبّارة المسودّة تواصل مسيرتها المكّوكيّة بين الضفّتين. وقد ازداد قائدها تداعياً، وعلى اللّافتة الصفيحيّة الصدئة غدت «عبّارات وأطواف» تُقرأ بشقّ النّفس. وكان لوحان من ألواح العبّارة قد انتُزعا ولم يعبأ أحد باستبدالهما بغيرهما. وسرعان ما تهالك الطّوْف وبدا أنَّ الماء الأسود الذي كان يظهر في الفراغ الذي تركه اللّوحان الناقصان أخذ يجعل الركّاب أشدَّ غمّاً وتجهُّماً.

وعند انبلاج النهار ذات أحدٍ رطب (كان ذلك الحدثَ الوحيد الذي لا بدّ من تذكّره بشكل مُبْهَم) نقلت العبّارة بضعة أشخاص كالِحِي الوجوه يرتدون معاطف سوداء فنزلوا على عجل وما لبثوا أن ابتلعهم الضّباب. وبعد ذلك بلحظات نادى المُعَدّيَ ركّابٌ آخرون يرتدون هم أيضاً معاطف مماثلة ويماثلون السّابقين تعجُّلاً وتجهّماً. واكتفوا بالاستعلام عن الذين سبقوهم ولم يزيدوا على ذلك شيئاً طَوال مدّة الرّحلة. وكان أحدهم لا ينفكّ يتقيّأ.

Twitter: @ketab_n

(٣٣)

بينما كنت أسير ذات صباح فوق الضفّة التي جمّدها الصّقيع على أمل الالتقاء بجمّاعة الحكايات والخرافات (كنت أجهل عندئذٍ أنّه رحل إلى غير رجعة) وجدتُ نفسي فجأة وجهاً لوجه مع المسؤول عن الورشة. وكانت تهبّ ريح باردة تحزّ الوجه، وقد بدا أنّ تلك الرّيح قد جمّدت على الأخصّ عينيه مغلّفة إيّاهما بقشرة صَدَفيّة.

ولفرط دهشتي حيّاني ذلك الرّجل المثلج الذي لم يسبق قطّ أن تحدّث إلى أحد. وعندئذٍ فقط أدركتُ أنّي كنت قد تحرّقت إلى التعرّف إليه. وتبادلنا بعض الكلمات وأخذنا بالمسير جنباً إلى جنب فوق الحصباء. وكان الحجاب المثلج على عينيه قد تصدّع في نقطتين أو ثلاث، الأمر الذي جعل نظراته أشدّ إبهاماً. وكنت قد تصوّرت مدى الصّعوبة في التّحدّث إلى هذا الشّخص، غير أنّي لم أتخيّل مع ذلك أنّها كانت إلى هذا الحدّ. وكان حديثنا مُفكّكاً وكأنّه قد رُتّب بالاتّجاه المعاكس للاتّجاه الصّالح فبدا كُبّةً متشابكة الخيوط كان من المستحيل أن أُخلّص نفسي منها. وكان أسوأ ما في الأمر إحساسي بأنّ هذا الرُّكام يحتوي على أمر مُهِمّ، بل نفيس، فزادت جهودي للحدس بما قد يكون هذا الأمر، ذلك الحديثَ بالضَّبْط مشقّةً على مشقّة. وأحسستُ بعد أن تركته بأنّ رأسي قد انشقّ نصفين. وجلستُ بالقرب من النّار وجهدت أُفكّك بعناية تلك الكُبّة المتشابكة خيطاً خيطاً

Twitter: @ketab_n

وظننتُ أنّي نجحت آخر الأمر في ذلك. وباختصار فقد كان ما أراد قوله لي هو التالي: تَبَعاً لأمارات كان قد لاحظها منذ بعض الوقت فإنَّه بدأت ترتسم بغموض، غموض شديد، في هذا الجزء من «أوروبا» معالم نظام جديد سوف يدفع بالعالم إلى الأمام عدّة قرون. وكانت تلك الأَمارات في نظره، من بين كثير غيرها، افتتاحَ مصارف جديدة في «دوريبس»، وتضاعُفَ عدد المُرابين اليهود والإيطاليين، وهم يُبادلون في الوقت الحاضر سبعة وعشرين نوعاً مختلفاً من العُمْلة، وقبولاً شِبْهَ عامّ بـ «الدوكا البندقيّ» عُمْلةً متداولة في الحسابات، وتزايُدَ القوافل التجاريّة، وتنظيمَ الأسواق الشّعبيّة العامّة، ولا سيّما (يالله، أين كان قد وضع كلمة «لا سيّما»!)، لا سيّما إذن، شقّ الطُرُق وبناء الجسور الحجريّة. ولقد قال إنّ هذه الحركة بأسرها لم تكن غير أَمارة على الحياة والموت في آن، أَمارة على ولادة عالم جديد وموت العالم القديم. وحدّثني عن الجسور وعن الصّعوبات التي يتضمّنها بناءُ مثلِ هذا النّوع من الأعمال، وشعرتُ خلال هذا القسم من الخطاب بأنّني تحت أنقاضِ واحدٍ منها كان قد هدمه فوقي. وقلتُ في نفسي: يا لها من آلام! يا له من عناء! وشرح لي أنّه لا شيء من جميع البشاعات التي تُصيب وجه الأرض يفوق بشاعة الجسور ـ الجثث. فهي ميتة في المهد وميتة حيّة (قال ما نصّه حرفيّاً: «إنّها تموت طَوال مدّة حياتها») حتّى يكونَ يومُ تداعيها («موتها الذي لا مزيد عليه»، كان هو التّعبير الذي استخدمه). وباح لي بأنّه كان يبني بنفسه من تلك الجسور وأنّها تظهر له في الحلم وكأنّها أشباح. وإذا ما حدث يوماً أن تملّكته الرّغبة في الانتحار (ذاك ما قاله لي) فسوف يشنق نفسه إلى جسر من هذا النّوع. ولم تكن تلك على ما يبدو جسوراً منصوبة فوق مجاري المياه ولا فوق الهُوِيِّ للجمْع بين ضفّتيْن

Twitter: @ketab_n

أو حافتيْن لخدمة حاجات الإنسان، بل كانت جسوراً مبنيّة وسط سهل ووظيفتها الوحيدة أن تكون مكانَ تسليةٍ لسيّدات الطّبقة الرّاقية يأتين إليها مساءً للتملّي من مشاهدة الأفق أو لاصطحاب ضيوفهنّ للنزهة. وقال: «أصبح بناء الجسور دارجاً الآن بحيث يستعملها كثير من الأمراء والباشوات وكأنّها شُرُفات أو سُطيْحات. ولقد بنيتُ من تلك الأشباح»، ثمّ أضاف مشيراً بيديه إلى مياه نهر الـ «أُويان» اللّعين المُزْبِدة و المقشعِرّة التي كان ينتصب فوقها الجسر الحَجَريّ الذي لمّا يكتمل بناؤه قائماً صارماً: «غير أنَّ جِسْراً كهذا، حتّى وإن توجّب إرواؤه بالدّم، أنفعُ ألف مرّة منها.».

ذلكم هو، على وجه التّقريب، ما تحدّثنا به معاً.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٣٤)

في الأسبوع الأوَّل من شهر آذار (مارس) وُجد الجِسْر.

وقد لحقت به مُجدّداً بعض الأضرار. وكانت عمليّة التدّمير قد تمّت بكاملها هذه المرّة تحت مستوى المياه، وكان الضّرر مُقلقاً جدّاً. فقد انتُزِعتْ عدّةُ كتل من الحجارة في أسفل العَقْد الرّئيسيّ، وهذا يمكن، حسبما قيل، أن يهدّد الجزء المركزيّ من العمل بأسره إنْ لم يُصْلَحْ على الفور.

كان البنّاؤون المربوطون بجبال فوق المياه المثلجة يبذلون قصارى جهودهم لسدّ الفجوات التي أحدثتها الحجارة المُنْتَزعة. وكانت مهمّة شاقّة جدّاً، بل عند حدّ الممكن التحقيق، لأنّه كان ينبغي أن تُرصَف الحجارة الآن من غير مِلاط. والحقّ أنَّ هذا العمل الإصلاحيّ ما كان ينبغي أن يجري إلّا بعد انخفاض المياه بحيث يمكن استخدام المِلاط. غير أنَّه لو أُجِّل إلى ذلك الوقت لهدّدت المياه بتعميق الفجوة، الأمر الذي كان يمكن أن يُحْدِث كارثة.

أثار الضرر الجديد اللّاحق بالجِسْر عاصفة من الشّائعات والتوقُّعات السيّئة. وكان النّاس يأتون من بعيد ليَرَوْا بأمّ أعينهم الجِسْر اللّعين الذي استدعى غضبَ جنّيّات المياه. وكانت استحالة رؤية الموضع المُصاب تجعل الضّرر أشدّ إثارة للذُّعر.

ورافق تدفّق الزائرين الفضوليين ظهور جماعة من المغنّين الذين

Twitter: @ketab_n

كان بعضهم قد عادوا من حرب لا تنقطع في مكانٍ ما من إمارات «الشَّمال»، وبعضهم الآخر يزور هذه الأماكن للمرّة الأولى. وكان هؤلاء الأخيرون قد أقاموا في «نُزُل الروبيريْن» وأخذوا يغنّون كلّ مساء أغانيَ قديمة بصوت مرتجف.

وقيل لي إنَّ إحداها كانت تروي حكاية ثلاثة إخوة بنّائين وزوجةِ أصغرهم التي حُبست في جدار قصر كان يُبنى في النهار ويتداعى في اللّيل. وتذكّرت جمّاعة الحكايات والأساطير، ولم أدْرِ ما الذي دفعني لزيارة «نُزُل الروبيريْن» لأسمع تلك الأغنية بأُذُنيّ.

كان اليومُ رطباً. وكان قد سقط طَوال النّهار مطر ناعم خفيف من أمطار شهر آذار (مارس). وكانت الطّريق مزروعة ببُريْكات الماء، ولم أكن أستطيع أن أطرد من خَلَدي نداوة عينيْ جمّاعة الحكايات المختفي.

ما إن سمعتُ الأبيات الأولى من الأغنية حتّى أيقنتُ أنّ له نصيباً في تأليفها. لقد حُوِّرت الأغنية. فلم تكن تُخبر عن ثلاثة إخوة يبنون جداراً في قصر بل عن عشرات من البنّائين يُقيمون جِسْراً. وكانت أرواح المياه تُهدِّم ليلاً كلّ ما تمّ عمله نهاراً. وكان الجِسْر يُطالب بأُضحية. وكان المغنّون يغنّون: «ليأتِ شخص يوافق على التضحية بنفسه عند أسفل الجِسْر. ليُضحِّ بنفسه من أجل خير آلاف المسافرين الذين سوف يَعْبُرونَ هذا الجِسْر في الشتاء والصّيف، تحت المطر وفي العاصفة، ذاهبين إلى الفرح أو إلى الشّقاء مجموعةً بشريّةً لا حصر لها تسير في صفوف طويلة خلال العصور القادمة».

وسألني صاحب النُزُل: «هل تسمع هذه الأغنية الجديدة؟ لقد كانت القديمة أجمل».

Twitter: @ketab_n

لم أكن أعرف ما أجيب به. فقد كانت الأغنية تقول بصوت مرتجف:

«ليرتعشْ أيضاً هذا الجِسْر

كما أَرْتعِشُ في هذا الجدار».

وأضاف صاحب النُزُل: «لقد سمعتهم أمسِ يقولون إنَّ هذا الجِسْر تسري فيه بالفعل على الدّوام ارتعاشة خفيفة».

ووافقت بهزّة من رأسي. ومرّ في خاطري كالبرق الخاطف أنَّ جمّاعة الحكايات ربّما كان يعرف عن الجسور بالقدر الذي يعرفه المعماريّ نفسه.

وفي طريق العودة كانت ذكرى عينيه لا تزال تُلابس ذهني وأنا أنظر إلى بُريْكات الماء. وفي البعيد بدا الجِسْر مع انتشار الغَسَق وقد اكتسى لوناً بنفسجيّاً. وكان المعماريّ قد قال: «حتّى وإن رُوي ألف مرّة بالدّم. . .».

لم تكن الأغنية تبشّر ـ وكان ذلك واضحاً ـ بغير الدّم.

ولم أكن أفكّر طَوال الطّريق إلّا في الأُضحية القريبة. وكان ذهني مُبَلْبَلاً. فهل تأتي الضحيّة من تلقاء نفسها إلى الجِسْر، كما فعلت زوجة أصغر الإخوة، أم تقع في شَرَك؟ ومَنْ ستكون؟ وأيّ سبب سيدفعها إلى حتفها أو يدفع أَحَدَهم إلى إسلامها للموت؟ ولقد اختلطت في رأسي الأغنية القديمة بالجديدة مثل غُصنيْن يُسعى عبثاً إلى تطعيم أحدهما بالآخر. فما الذي سيجري في بيت الضحيّة في اللّيلة التي ستسبق ليلة التضحية؟ وما السّبب الذي سيحدو بها إلى الانطلاق في ليلةِ مُحاقٍ، حسب قول الأغنية، للقاء الموت؟

وقلت في صوت شبه مرتفع: «لن يأتي أحد. فليس جمّاعة الحكايات هذا إلّا مجنوناً». غير أنّني كنت أحذر في أعماق ذاتي أن

Twitter: @ketab_n

يأتي أحدهم. ولسوف يأتي على مهل، بخطى خفيفة ومن غياهب الظّلام، ليُلقي برأسه فوق المذبح. وقلت لنفسي: «مَنْ تكون أنتَ يا مَنْ سيأتي؟ ولِمَ ستأتي؟».

* * *

Twitter: @ketab_n

(٣٥)

حمل بعض المسافرين الذين أمضوا اللّيل في «نُزُل الروبيرئن» أنباء مُقلِقة. فقد أرغم «الأتراك» في نهاية الأمر «بيزنطة» على إعطائهم في الأشهر القريبة نصيبهم في قاعدة «لوريبه»، أيِ النّصف. وتوصّلوا إلى أن ينتزعوا من الإمبراطوريّة الشّائخة ما كانوا قد طلبوه طويلاً سُدىً من «أرانيت كومنين». حتّى إنّه إذا كانت هذه الأنباء المشؤومة صادقة فإنّ «أرانيت كومنين» سيكون بعد اليوم شريكاً للنَّمِر الملكيّ التركيّ. وكان من السّهل تصوُّر كيفيّة العيش في قفص واحد مع نَمِر.

لقد هزّ النّبأ جميع النّاس وسيّدَنا بشكل خاصّ. وكان يُقال إنَّ «أرانيت» قد بعث برسائل إلى جميع الأمراء الألبانيين، وإنَّ حالة الحرب قد أُعلنت في «لوريبه». وكان العزاء الوحيد يكمن في الوقت الحاضر في الأمل بأنّه قد لا تكون تلك الأنباء سوى شائعات لا أساس لها من الصحّة، أو أن تكون على الأقلّ مبالَغاً فيها.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٣٦)

كان شهر آذار (مارس) يجرف أيّامه وكأنَّها قطع ثلج صغيرة. ولم يكن أحد يَذْكُر بالاعتماد على ذاكرته وحدها نهايةَ شتاء بمثل هذه القسوة. وكانت الأنباء عن قاعدة «أوريكوم» في «لورييه» صحيحة. وقد نُشر قرار «بيزنطة» بإعطاء الإمبراطوريّة التركيّة نصيبها بمرسوم خاصّ في عاصمتَي الإمبراطوريتَيْن: «القسطنطينيّة» و«بورصة».

وأثار الخبر ذهولاً شديداً في كلّ مكان. ويُقال إنَّ بلاطات «أوروبا» لم تكن لتصدّق أنَّ «بيزنطة» العريقة استطاعت أن توافق على مثل هذه المَهانة. وكان بعضهم يُسوِّغ عملها بالدّفاع عن أنَّه كان بالنّسبة إليها الطّريقة الوحيدة للإفلات في الوقت الحاضر من الوحش التركيّ. في الوقت الحاضر... ولكنْ فيما بعد؟

وعُلم من «لورييه» أنَّ التحضيرات لإخلائها من المراكب الحربيّة البيزنطيّة وغيرها من العتاد الحربيّ قد بدأت. وكان يبدو أنَّ القاعدة سوف تُخلى دون إبطاء. وكذلك كانت الحامية الإسكندنافيّة تستعدّ لإعطاء مكانها للحامية التركيّة.

وكما لو أنّ هذه السُّحُب السّوداء لم تكن كافية. فقد استمرّ المغنّون في «نُزُل الروبيريْن» يتغنّون بالتضحية الخيّرة الواجِب تقديمُها إلى الجِسْر.

Twitter: @ketab_n

وكانت الأشغال تتواصل بالنّشاط المحموم نفسه. ومُذْ سمعتُ الأغنية الأخيرة التي يَلْعَن فيها المحبوس في الجدار الجِسْرَ ويَنْذُرُه لارتعاشة أبديّة وأنا أشعر بأنّه قد بدأ يرتجف بالفعل.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٣٧)

مرّت خلال عدّة أيّام فوق الطّريق المؤدّية إلى الغرب عربات محمَّلة بأكداس من الزّفت. وأخذ المُعَدّي ينقلها إلى الضفّة الثانية وهو يسبّ ويلعن الحمّالين والقِطرانِ والنّاس أجمعين.

وكان يُقال إنَّ النّاس في قاعدة «لورييه» كانوا بحاجة ماسّة إلى القِطران. ولقد كان الأمر دائماً على هذا النّحو: عندما كان النّاس يَرَوْن القطِران وهو يُنقل فوق الطّرقات على عجل فإنّه كان في وسعهم أن يكونوا على يقين من أنَّ الدّم سوف يُسفك.

وحواليْنا، أعني في كلّ ما يحيط بمبنى ذلك الجِسْر اللّعين، كان شعور قاتم يتفاقم على الدّوام. وبدا الجميع وكأنَّهم بانتظار حدوث أمر. ولم يَعُدِ الآن مُغَنّو «نُزُل الروبيريْن» وحدهم الذين يتخرّصون بالنبوءات القاتمة. لا، فقد أخذ النّاس يتحدّثون حاليّاً بذلك في كلّ مكان، وأغرب ما في الأمر أنَّهم كانوا يتحدّثون عن تلك التضحية الخيِّرة بشكل طبيعيّ جدّاً وكأنَّهم يحكون عن المطر أو عن الصّحو. والتضحية التي كانت حتّى البارحة حقيقة من حقائق الأغاني أفلتت من نقطة ثباتها بغتة لتقترب منّا سريعاً وتُحوِّم حولنا مُفْعَمَة بالحياة شأنُها شأنُ جميع عناصر وجودنا الأخرى.

وكان يدور في الشّوارع والبيوت والأنزال وعلى طول الطّريق الكبرى جدل عن التعويض الذي كان معماريّو الجسور والطّرق

Twitter: @ketab_n

يوافقون على دفعه لأسرة من يقبل، رجلاً كان أو امرأة، بالتضحيّة بنفسه عند أسفل الجِسْر. ولم أكن أَفْقَهُ شيئاً من ذلك. فحتّى أمسِ كانوا قساة مُتوعِّدين، في حين لَطُفوا بغتة. ودار الحديث في كلّ مكان عن المبلغ الجسيم الذي ستقبضه أسرة المحبوس في الجدار، بل لقد كان يُقال إنَّه سوف تتلقى طويلاً عِلاوة على المبلغ المدفوع نقداً نصيباً من حقوق المرور مثلُها مثلُ أولئك الذين مَوَّلوا عمليّة البناء. وكان لدى بعضهم أيضاً تفاصيل أعجب يَرْوونها. فلقد دُرست بعناية، على ما يبدو، التعويضاتُ التي سيتلقّاها أفراد عائلة الضحيّة، وجميعُ الاحتمالات المنظورة. وعليه فقد كان كلّ شيءٍ مَتَوَقَّعاً، ابتداء من الحالة التي قد يكون فيها الضحيّة وحيداً في هذه الدّنيا (الأمر الذي يصعُب تصديقه، بيد أنَّه يمكن مع ذلك أن يحدث، ويُخصَّص التعويضُ في هذه الحالة لبناء نُصُب تذكاري له عند أسفل الجِسْر)، ابتداء إذن من الحالة التي يكون فيها الضحيّة يتيماً إلى حالة شخص مُعْوِز متزوّج وله عشرة أولاد. ويُقال إنَّ هذه التعرِفات قد سُجِّلت على الورق وخُتمت بشكل قانوني بحيث يستطيع الشّخص الذي ينوي تقديم نفسه قُرباناً للجحيم أن يطّلع عليها مُقَدَّماً.

لقد أثّر فيّ ذلك كلّه تأثير حلم غريب. فهي أمورٌ لم يسبق قطّ أن سمعنا بها، ونوعٌ من ميتة مُسعَّرة وموقّعة بالأختام ومحدّد لها معدّلُ فائدة. وكنت أُصاب في بعض الأحيان من جرّاء ذلك بالدُّوار، ولم أكن أَفْقَهُ منه شيئاً. وتذكّرت أحاديث بعثتهم مع سيّدنا وأقوالَ جمّاعة الحكايات ومِعْماريِّ الجسور، وجهدتُ في إقامة رابط بينها، غير أنّي كنتُ كلّما حككتُ دماغي ازددتُ غَوْصاً في الوحل. فقد جاءت هذه التعرفة للتضحية تُبلبل كلّ شيء.

وكنت أقول لنفسي أحياناً: ربّما كانت تلك هي الأَمارات على

Twitter: @ketab_n

النظام الجديد الذي حدّثني عنه المِعماريّ خلال ذلك اللّقاء التذكاريّ. فلقد كان رُكام أقواله وكأنّه متبَّل بعقود اتّفاق وحسابات وتبديل عُمُلات ومعدّلات فائدة، معدّلات فائدة فوق كلّ حساب. وحتّى فوق الموت.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٣٨)

كان الأمر يُثقل عليّ إثقالاً مشؤوماً. وكنت قد سُحقت تحت أكوام الحجارة، وأحد العقود يجثم فوق بطني والآخر على عنقي، وأنا أسعى للتخلّص منهما، ولكنْ عبثاً. والحركة الوحيدة التي تمكّنت من القيام بها كانت مُختزلَةً في ارتعاشة خفيفة، خفيفة جدّاً. . . وقلت في نفسي، آه، أجل! ها هي ذي الارتعاشة التي كانت تذكُرها الأغنية. وأحسست بصرخة تطفو إلى حَنْجَرتي وتسعى جاهدة للانبجاس وهي ترفع العَقْد الحجريّ. غير أنَّ هذا كان يُمسك بها ويمنعني من الحراك. ودام ذلك التعذيب طويلاً. ثمَّ تحرّر شيء داخلي، لست أدري كيف، ونجحت في التململ. إلَّا أنّني شعرت في الوقت نفسه وأنا أُغمض عينيّ من الهلع بأنَّ أطلال الجِسْر تتداعى فوق جسدي.

وأفقت سابحاً بالعَرَق. وكانت تسود غرفتي حرارةٌ لزِجة. ونهضت لأفتح النّافذة. وفي الخارج كانت تهبّ ريح محمَّلة بمطر ساخن. وكان من الممكن الحَدْس بعَكَر السّماء من غير حاجة إلى النّظر إليها. وكانت بعض البروق الخرساء تشقّ هنا وهناك بساطَها المُصاب بالصَّمَم.

قلت بصوت مرتفع: «يا إلهي!» وعدت أستلقي على فراشي، إلَّا أنَّ النّوم جافاني. وكانت أفار بليدة كأنّها خرجت بمشقّة من خَدَر

Twitter: @ketab_n

شتوي ملتفّة بضياء كاذب تتحرّك في مكانٍ ما من كِياني. ولست أدري كم من الوقت لبثتُ هكذا بلا حراك. وعندما فتحت عينيّ في نهاية الأمر كان الفجر قد بزغ. وكان أحدهم يقرع باب المدخل. وكان صوت المقرعة يبدو مشوباً بالقلق. وكانت السّماء مُضِبّة، غير أنّها لم تكن بالسّواد الذي ظننته. وقلت في نفسي: ها هوذا الرّبيع يُقبل بغتة حافلاً بالنّشاط.

وعند الباب كان قرويّان من جيراني بوجهيْن مكفهرّيْن. وكانت عيونهما كدِرة وقد احمرّت حافاتها. وقلت لهما:

- ماذا جرى؟ ما الذي حدث لكما؟

ورفعا أيديهما إلى عُنُقَيْهما وكأنّهما يريدان انتزاع الكلمات منهما.

- عند الجِسْر يا «جيون»... تحت العَقْد الأوّل... حُبس «مرّاش زينيبيش» داخل جدار...

- إنّكما لمجنونان، هذا غير ممكن!

لم يكن في وسعي أن أزيد في الكلام، أو حتّى أن أفكّر. وأمّا هما فقد توقّفا قبلي على ما يبدو عن التفكير، وكانا يتوقّعان منّي بالضّبط بعض العَوْن. وإذ توجّهت بعد قليل إلى الجِسْر فقد تيقّنت. وكان ما فعلتُه أكثر من مسير، كان تموّجاً يشبه عَوْم ثلاثة أسمال، وأنا في وسطها، وكانت الرّيح تتلاعب بها على هواها.

كنت أعرف «مرّاش زينيبيش». وكان من الصّعب أن يُعثر بين عامّة النّاس على شخص أقلّ فرادة منه. فقد كان مظهره وقامته وحياته عاديّة إلى درجة التعذيب. ولم يكن في وسعي أن أتصوّر أنّه قد أُسْنِد إليه المصير العجيب بأن يكون هو الذي سيُحبس في جدار. وكان الأمر يتجاوز أن يغدو زعيماً كبيراً، تمثالاً. فقد انزلق بيننا وبينه مِلاط الأسطورة.

Twitter: @ketab_n

كان يُلمح من بعيد حشدٌ صغير من النّاس عند أسفل الجِسْر بالقرب من أحد العقود الجانبيّة، تلك التي على اليمين باتّجاه التيّار؛ ولا بدّ أن يكون المحبوس في الجدار هناك.

وجهدت وأنا أقترب من المكان في أن أستعيد، لا أدري لماذا، ذكرى وجه «مرّاش زينيبيش» العاديّ التّكوين. يا إلهي، لقد سبق أن أفلت من مخيّلتي! وكان كأنّه يسبح بين ماءيْن وعليه نوع من ابتسامة مقطّعة الأوصال غريبة.

تنحّى الحشد الصّغير بصمت ليفسح لي مكاناً في الوسط. ولم يُحيِّني أحدٌ منهم. وظلّوا هناك واقفين منتصبين مِثْلَ شموع في معبد وبَدَوْا قِصاراً بشكل غريب فوق الظلّ الذي رسمه الجِسْر، وقد حنى فوقهم قنطرة صارمة وباردة.

وقال لي صوت مكتوم: «ها هوذا».

وكان هناك، أبيضَ مثلَ قناعٍ ومَطليّاً بالكلس فلا يَبين منه غيرُ وجهه وعنقه وقسم من صدره. وأمّا سائر الجسد والذراعان والسّاقان، فقد اختفت في الجدار.

لم أكن أستطيع تحويل بصري عن المحبوس في الجدار. ففي كلّ مكان كانت تُرى آثارُ مِلاط طازج. وقد أُضيفت حاشية جدار لتغليف الضحيّة (كان جمّاعة الحكايات قد قال إنّ جسداً يُحْتَبس في دِعامات الجِسْر بالذّات يُضعف بناءها) وكانت عارضتان سميكتان فوق الميت تشكّلان أساس حاشية الجدار المُضافة.

وكان المحبوس في الجدار يبدو وكأنّه نَبَتَ داخل الحَجَر. فقد كانت جذوره وبطنه وساقاه وجذعه في الدّاخل. وجزء صغير جدّاً من جسده كان بارزاً.

Twitter: @ketab_n

سأل صوت خابٍ أطلقه قادم جديد:

- متى؟

- بعد منتصف اللّيل بقليل.

- هل تألّم كثيراً؟

- لا، على الإطلاق.

لمحت بالقرب منّي عَبْرة. وعندها لاحظت وجود زوجته. وكانت متورّمة الوجه من البكاء وتحمل بين ذراعيها رضيعاً لا يزيد عمره على سنة وهو يُطالب بالرِّضاع. ولقد أخرجت ثدياً منتفخاً باللّبن من غير أن تحفل بالرّجال الذين كانوا هناك. وكانت دموعها تتساقط على هذا الثّدي الضّخم الأبيض، وحين كانت حَلَمته تُفلت من شفتَيِ الطّفل، كانت تلك الدّموع تمتزج بقطرات الحليب.

«لقد كان هادئاً جدّاً»، ذلك ما كان يقوله أحدهم لأحد أمينيْ سرّ الكونت، وكان قد جاء يستطلع الأمر. «وكان قد تأكّد مرّة جديدة من شروط الاتفاق، ثمّ...».

كان بنّاء بالقرب منّا يرشّ المحبوس في الجدار بالكلس الذّائب. وقد سال السّائل المُبْيَضّ من شعره المتصلّب فوق جبينه فأضفى على عينيْه المفتوحتيْن بريقاً مباغتاً لم يلبث أن انطفأ، وشوّه قَسَماته في بعض المواضع، ثمّ سحّ على عنقه وضاع في الجدار.

وسأل صوت خجول: «لماذا يرشّونه؟»، بيد أنّ أحداً لم يُجِب.

ويبدو أنّه كان يُرَشّ من حين إلى آخر، لأنَّ البنّاء ذهب، بعد أن أفرغ دلوه على الضحيّة، يملأه من جديد بالكلس من أحد البراميل.

وعادت عَبَرات المرأة، وكانت قد توقّفت بعض الوقت، تفيض بغزارة.

Twitter: @ketab_n

وسألتُها بصوت خافت: «ألم يَبُحْ بمشروعه لأحد؟».

وأجابت برأسها أنْ «لا» وأضافت مُغمغمة: «لا، لأيّ إنسان».

وعندها فقط لاحظت وجود أفراد أسرته الذين كانوا يحيطون بها. فقد كان هناك أبو المحبوس في الجدار وأُمُّه، وكذلك أخواه وزوجتاهما. وكانت وجوههم جامدة وكأنّهم رُشّوا هم أيضاً بذلك الكلس الذّائب الأبديّ.

«أيّ إنسان»، ردَّدت المرأة، غير أنّي كنت قد عجزت عن احتمال رؤية عينيْها لكثرة ما قرّحتهما الدّموع.

سألها أمين سرّ الكونت هو أيضاً سؤالاً أجابت عنه باقتضاب. ثمَّ التفت إليّ ليقول لي شيئاً، بيد أنَّ نظري كان مشدوداً إلى المحبوس في الجدار، وبالضبط إلى النُقرة التي أخذت تتشكّل عند قاعدة عنقه، هناك حيث. . .

إلّا أنَّ البنّاء، وكان دلوه في يده، رشّ في تلك اللّحظة الضحيّة مجدّداً فأخذ الكلس يسيل على الجبين، وأضاء العينيْن لحظة قبل أن يُطفئهما من جديد، أبيض وكريهاً وأعمى وجافّاً، ثمّ تقطّر على عنقه مُتعجِّلاً بالضّبط في تبييض الموضع الذي لم أتمكّن من الإشاحة ببصري عنه.

كان الرّضيع قد ترك الحَلَمة تُفلت من جديد من شفتيْه وشرع يحتجّ. وسألتُ الأمّ عمّا إذا كانوا في ضائقة.

قالت: «لا. لقد كان يكسب ما فيه الكفاية في هذه الأيّام الأخيرة».

وتفكّرتُ في هذه الأيّام الأخيرة. لقد كان يعمل، شأنه شأن كثير من أهالي الناحية، في الجِسْر، ولا بدّ أنّه كان يقبض راتباً تافهاً على شاكلة سائر أمور حياته.

Twitter: @ketab_n

كان قد وصل رجل آخر من رال منزل الكونت، وسمعتُ بالقرب منّي همساً بالكلمات نفسها.

- متى؟

- بعد منتصف اللّيل بقليل.

وراودني شعور بأنَّ هؤلاء النّاس سيظلّون واقفين هنا هذه الوقفة الجامدة، وأنَّ تلك الكلمات يتلفّظ بها قادمون جُدُد سوف تتكرّر على هذا النحو حتّى نهاية العالم.

وقالت المرأة بحذاء كتفي: «لقد كان محطَّماً جدّاً في الأيّام الأخيرة؛ وكان يبدو مكروباً وكأنّه مُصاب بالحَصَر».

- ومساء أمسِ؟

- لا سيّما مساء أمسِ.

وحطّت عيناي مجدّداً على عنق المحبوس في الجدار، على النُّقرة الصّغيرة القائمة عند قاعدة العنق، وكأنّ شيئاً لا بدّ أن يظهر في هذه النقطة، طيفاً... شيئاً... لست أدري كيف أقول. إلّا أنَّ البنّاء، بحركته المعتادة، أفرغ من جديد كلسه الذائب على المحبوس في الجدار. وسال عليه الماء الأبيض شراباً أسطوريّاً حقيقيّاً.

وكرّرتْ: «لا سيّما مساء أمسِ. فقد شعرتُ حوالَيْ منتصف اللّيل بأنّه كان يتحرّك بجانبي. وعند الفجر، عندما استيقظتُ، لم يكن هناك».

وإذ أفلت ثديُها مرّة أخرى من الطّفل فقد سال اللّبن على الأرض، غير أنَّ هيأتها كانت تنمّ عن عدم حفولها بذلك.

وعاد أحدهم يسألها: «هل كنتما بحاجة إلى مال؟».

وقالت المرأة: «أوه، تعرف، مثلَ كلّ النّاس.».

Twitter: @ketab_n

كان ذوو الميت لا يزالون واقفين في مكانهم ومتجمّعين في زمرة صغيرة وصامتين. وكان يُسمع صليل الدلو الذي كان الرّجل يملأه بالكلس من البرميل. واستولى عليَّ الفزع. فما كنت لأدهش لرؤيته الآن يرشّنا جميعاً بكلسه.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٣٩)

كنت في ذلك اليوم والذي تلاه مسكوناً على الدّوام بتلك الرّؤية. ولقد شعرت بأنَّ عينيْه المفتوحتيْن الجامدتيْن تحت طبقة الكلس الرّقيقة سوف تظهران لي فوق أيّ مساحة من جدار حولي. وكانت الجُذُر بعامّة تُفزعني، وكنت أبذل ما في وسعي، عبثاً بالطّبع، كيلا أنظر إليها. وعندها فقط أدركت المكانة الكبرى والقويّة التي تحتلّها الحيطان في حياتنا. فلم يكن في مقدور المرء الإفلات منها إلاّ عن طريق وَعْيه بالذّات. وكثيراً ما خرجتُ من الدّير إلى الخلاء، قريباً أو بعيداً، وكنت أجد جُدُراً على الدّوام.

ولكثرة ما افترضتُ من افتراضات فقد أحسست بدماغي ينفجر. فإذا كان قد جاء حقّاً، كما كان يقول الجميع، يقدّم نفسه مختاراً إلى الجحيم، إذا كان الدّافع الحقيقي إلى ما فعل؟ الرّغبة في تأمين حياة رخيّة لزوجته وطفله بفضل المبلغ الكبير الذي ستدفعه له الشّركة؟ لقد كنت أصدّق ذلك عن أيّ شخص، وأمّا عن الإنسان البسيط الذي كانه «مرّاش زينيبيش» فلا. وكنت أقول لنفسي أحياناً إنّه ربّما كان قد قرّر قتل نفسه ليُفلت من الخلاف العائلي (لا يمكن تصوّر الجحيم التي يمكن أن تخلقها السَّلَفات المقيمات معاً)، غير أنَّ هذا لم يكن ليُصدَّق في الحالة الرّاهنة. فلم يسبق قطّ أن قيلت الأقاويل عن عائلة «زينيبيش». وكنت أتساءل في أوقات أخرى عمّا إذا كان قد باح

Twitter: @ketab_n

لزوجته بمشروعه، مهما كان الدّافع إلى تضحيته. وإذا كان الجواب بالإيجاب فهل وافقته عليه؟ لم يكن ذلك ليُعْقَل. وكنت أقول لنفسي في أحيانٍ أخرى إنّه ربّما لم يكن يحبّ زوجته. فقد كان يخرج ليلاً من حين إلى حين، ولم تكن تعرف إلى أين يذهب. بل لقد كانت تشعر أحياناً بالغَيْرة.

كنت أشعر بالتّأكيد أنّ تلك كانت طريقة مقيتة في تفسير الأمور، ولكنّني على الرّغم من علمي فإنّني لم أخفّف من استعارتها من ذاك الجمّاعة للحكايات والأساطير. وكنت أجتهد في الإفلات منها، كما كنت أفعل بشأن الحيطان، غير أنّ تلك الأفكار لا تنفكّ تُلِحّ على خاطري.

كان يخرج ليلاً في بعض الأحيان... أكانت زوجته تقول الحقّ؟ أكانوا جميعاً يقولون الحقّ؟ أنا أيضاً كان من الممكن، شأني شأنُ الآخرين، أن أصدّقهم، إلّا أنَّ ذلك الموضع على عنق المحبوس في الجدار، ذلك الموضع عند ملتقى العنق بالصّدر كان قد أربك كلّ شيء. ولقد حدّدت النّظر ثلاث مرّات إلى تلك النقطة من جسده لأنّني شعرت في المرّات الثلاث بأنّه كانت قد بدأت تتكوّن تحت طبقة الكلس بقعة حمراء ناصلة، ناصلة جدّاً. بيد أنَّ الرّجل المزوَّد بدلوه كان قد رشّ في المرّات الثلاث المحبوسَ في الجدار قبل أن تميّز عيناي بقعةً حمراءَ واضحةً تماماً.

«كفى»، قلت لنفسي. كلّ تلك الشائعات لم تكن غير اختلاق وكذب. فالأمر يتعلّق بجريمة لا غير. لقد ذُبح «مرّاش زينيبيش». ذُبح من غير أن يرفّ لقاتله جَفْن، ثمّ حُبس في الجدار. وكان جرحه، أو أحد جروحه، قائماً عند مُلتقى العنق بالصّدر، وكان ذلك الرّجل يرشّه

Twitter: @ketab_n

بالكلس بين الفينة والفينة ليُغطّيَ بالضّبط نزيفاً دموياً أخيراً مُحْتَمَلاً. لقد كانت تلك بالتّأكيد جريمة قتل قام بها معماريّون.

ولكنْ كيف حدث أن كان «مرّاش زينيبيش» عند الجِسْر؟ لقد صُغتُ هذا التساؤل جِهاراً لأنّي شعرت بالرّضى عن إمكان الإجابة عنه بوضوح. كان يخرج من حين إلى آخر ليلاً. . . وعليه فسوف نقوم بأنفسنا بمهمّة حذفه من الوجود. . . وفي ذلك اليوم، في منزل الكونت، كان المعماريّون قد تركوا هذه الكلمات تُفلت منهم. وكان مصير «مرّاش زينيبيش» قد حُدِّد بالتّأكيد في حينها. فقد كان الأرضيّون اكتشفوا أنَّ المائيّين كانوا يدفعون المال إلى أحدهم لهدم جزء من الجِسْر أثناء اللّيل. وكان ذلك الرّجل «مرّاش زينيبيش» البسيط المتواضع. وكان قد أنجز مهمّة الهدم ثلاث مرّات من غير أن يُلقى القبض عليه. وفي الرّابعة قُبض عليه بالجُرْم المشهود وقُتل. وفي تلك الأيّام الأخيرة كان مُحطّماً جدّاً، وكان يبدو وكأنّه مكروب. . . وماذا حدث بين العشيّة وضحاها؟ ولا سيّما في العشيّة. . . أجل، كان قد شعر بأنَّ الحلقة تضيق من حوله. ففي كلّ مكان كان المغنّون يتغنَّوْن بموته. ولم يكن له سوى مخرج واحد، أن يتوقّف عن عمله التخريبيّ. ولكنْ يبدو أنَّ رجال «عبّارات وأطواف» لم يستسلموا لرؤية اتّفاقهم يُفسخ. وإذ كانوا قد أوقعوه في أحابيلهم فإنّهم لم يَدَعوه يخرج منها. وكان أمامه خِياران: الهرب، أو مواصلة الدّرب إلى الهلاك. وفي العشيّة؟ لا سيّما في العشيّة. أكان ذلك يا تُرى هو الالتزام الأخير يُنفِّذه لمصلحة رجال الماء؟ لقد خرج مثل سائر المرّات في حوالَيْ منتصف اللّيل. ونزل إلى الماء بعيداً من الجِسْر ثمَّ دنا منه سباحةً وهو يجهد في ألّا يُحدث ضجّة. وكانت اللّيلة ظلماء، بلا قمر. ثمَّ حدث هناك شيء لن يعرفه أحد أبداً. فلم يكن أحد يعرف شيئاً عن ظروف

Twitter: @ketab_n

أَسْره ولا عن تنفيذ حكم الموت فيه. أيكون القَتَلَة قد أعدموه على الفور أم أخضعوه قبلاً لاستجواب؟ أيكونون قد هدّدوه، أم أنّهم عاملوه، على العكس من ذلك، بالحُسنى مُطَمْئِنين إيّاه بالتلويح له بالتعويض الكبير الذي ستتلقّاه زوجته؟ أم أنّ الأمور قد لا تكون سارت قطّ على هذا المنوال؟ فلم تكن أقوالٌ متوعِّدة، ولا أحاديثُ رفيقة، بل جرى القتل ببساطة في صمت وحدث كلّ شيء بلا كلمات، هناك، عند العَقْد الأوّل. الواقع أنَّ تنفيذ عمليّة قتل كان يلوح منذ زمن في الفضاء. ولقد أصابنا جميعاً رَشَاشُ الدم الذي انبجس منها، وكانت صرخات الرُّعب التي لم يكن بدّ من أن يُطْلِقَها قد سبق خَنْقُها.

كان الصّراع الطويل بين المائيّين والأرضيّين قد انتهى بانتصار الأخيرين. «لا تَسْعَوْا إلى إيذائنا لأنّكم إنْ فعلتم لقيتم حَتْفَكم». كانت هذه هي الصيحة المتعالية من عَقْد الجِسْر الأوّل.

كنت مقتنعاً بكلّ ذلك. ومع هذا فقد كان عقلي يرفض حتّى النهاية الإقرار به مواصلاً بصمت إقامة سلسلة لا تنتهي من الافتراضات.

وإذا كان الأمر على ذلك النّحو، وهذا ما كنت ميّالاً إلى تصديقه، ففي وسع المرء أن يتساءل عمّا إذا كانت امرأة «مرّاش زينيبيش» على علم بذلك الاتّفاق مع «عبّارات وأطواف» من أجل ذلك العمل التخريبيّ، وإذا كان الجواب بالإيجاب فأيّ موقف اتّخذت. غير أنَّ سؤالاً كان يطرح نفسه قبلاً: ما الذي دفع «مرّاش زينيبيش» إلى التفاهم مع «عبّارات وأطواف»؟ الحاجة إلى المال؟ لقد كان يتقاضى راتباً جيّداً. وأخواه، وهما بنّاءان أيضاً، يكسبان قَدْرَ ما يكسب.

Twitter: @ketab_n

كنت أشعر بهذه الأفكار جميعاً تختلط اختلاطاً مشوّشاً في رأسي. وكنت مُدْرِكاً أنّني اقتحمت متاهة لم يكن في وسعي قطّ الخروج منها. وكنت أعود إلى النقطة التي انطلقت منها وأدور ثمَّ أدور حول تلك النّقطة. أتكون امرأته قد دفعته إلى تلك الفعلة، أم أنّها كانت، على العكس من ذلك، قد أرادته أن يُمسَك؟ لم يكن من الممكن استبعادُ أيٍّ من هذيْن الاحتماليْن. فلعلّها قد حلمت بحياة أفضل، وبأن تلبس خيراً ممّا تلبس سَلَفتاها، وبأن تحصُل على بعض الحُلى. إلّا أنَّ من الممكن أيضاً أن تكون قالت لزوجها: ما الذي سنفعله بهذا المال اللّعين؟ لحسن الحظّ أنّه لا ينقصنا شيء. لقد كان يخرج ليلاً في بعض الأحيان. . . ولقد أبدت الغَيْرة غير مرّة. وماذا لو كان قد رغب حقّاً في ذلك المال لإنفاقه على امرأة أخرى؟ لقد كان يخرج ليلاً. . . ومن الممكن أن يكون لهذا سببان: فإمّا أنّه كان يخرج للقيام بعمله التهديميّ، وإمّا أنّه كان يلتقي بامرأة ثانية ـ وإمّا أنَّه كان يقوم كذلك بالأمريْن معاً. ولقد كان أشدّ مطابقة للواقع أن تكون امرأة ثانية، أكثر ممّا هي صروف حياته اليوميّة، هي التي دفعته إلى تعريض حياته على ذلك النّحو للخطر. آه، أكانت امرأته غَيْرى؟ ربّما كان قد سوّغ خَرْجاته بعمله في الجِسْر (إذا كان قد سبق له أن باح لها بالسّرّ) من غير أن يُبدِّد مع ذلك شكوك زوجته. وقد تكون لحقت به في ليلة من تلك اللّيالي، وإذ اكتشفت سرّه الآخر فما كان منها لشدّة حنقها (أو برباطة جأش، من يدري؟) إلّا أن وشت به إلى المعماريّين.

ومهما يمكن، وعلى أيّ صورة جرت الأمور، فإنَّ الثابت أنَّ سادة الجِسْر قد قتلوا «مرّاش زينيبيش» من غير أن يرفّ لهم جَفْن، وأنَّهم حبسوه بعد ذلك في جدار. ولم يكن للجريمة غيرُ دافع واحد: نَشْرُ الإرهاب.

Twitter: @ketab_n

ولقد حسبوا جيّداً حساب كلّ شيء. ودرسوا بالتّأكيد بدقّة فائقة جميع الطرائف الممكنة لتسويغ هذه الجناية. وكانوا قد تهيّأوا لهذه المهمّة في وقت لم يكن بعدُ للجِسْر فيه ولا لتصاميمه من وجود بإرسال رجل تظاهر بأنَّه مصاب بالصَّرع فوق ضفّة نهر الـ «أُويان» اللّعين بالذّات. ولم يكن هناك في ذلك الوقت جِسْر ولا مشروع، وإنّما كان فقط ذلك الدّاء. ولقد شقّ الطّريق. وكان طبيعيّاً أن يتبعه الموت.

كان الخصمان، «عبّارات وأطواف» و«جسور وطُرُق»، قد استخدما، في صراعهما الضّاري، أسطورتنا. ولقد أعدّ الأوّلون من خلالها لهدم الجِسْر. وأعدّ الأخيرون، بالوسيلة نفسها، لجريمة القتل. وكان أولئك الغرباء قد حضروا من بعيد، بعضهم من جهة المياه والآخرون من جهة السهوب، حاملين معهم الجريمة.

وإذ قلّبوا بين أيديهم، أيدي الخبراء في المحاسبة، أسطورتنا فقد حوّروها بحسب ذوقهم. ولقد جرّدوها من حقيقتها السامية لوضعها في خدمة خُدعة فظّة.

ولم يكن أحد قد فكّر في البداية في ما يمكن أن يجلبه هؤلاء القادمون الجُدُد، بعضهم من «الغرب»، وبعضهم الآخر من «الشّرق».

* * *

Twitter: @ketab_n

(٤٠)

لم يكن من حديث في هذه الأيّام إلّا عمّا قاسى «مرّاش زينيبيش» من عذاب. وكانت تُروى أغرب الأمور، وتُشاع أكثر الشّائعات بُعداً عن المعقول، وتُكرَّر الأقوال التي يُرجَح بأنّه تلفّظ بها، والرّغبة التي عبّر عنها بإبقاء عينيه خارج الجدار ليُتاح له أن يرى ولده (كان بعضهم يقول الجِسْر بدلاً من الولد)، إلخ... وكان ذلك السّيل من الشّائعات يصهر داخله عواطف النّاس وآراءهم في الحياة والموت والأسرة والواجب والرّباط الزوجيّ والآلهة. ولكنّه كان يصوِّر، وهو يعكس قوّة كلّ أحد أو جفوةَ طبعِه أو ضعفِه، حالةً نفسيّة واحدة، كما يصوِّر فصلاً واحداً، بمعزل عن أيّامه الاستثنائيّة، ومُتَّصِفاً بمناخ متكامل.

وكان حشد صغير من النّاس يتجمّع باستمرار فوق شاطئ رمليّ بالقرب من العَقْد الأوّل الذي فيه المحبوس في الجدار. وكان دَيْدَبانٌ يقيم الحراسة عليه من الصباح إلى المساء. ولم يكن قد لحق بوجه الميت، وهو عبارة عن قناع من الكلس المُبْيَضّ، أيّ تغيير منذ اليوم الأوّل. وقد أصبح بياضه، بعد أن جفّ الكلس ولم يَعُدْ أحد يرشّه، لا يُطاق. وكان بعضهم يقول إنّه لو نظر إليه المرءُ في ضوء القمر لأوشك أن يفقد صوابه.

وكان أقرباؤه ووالداه العجوزان وأخواه وزوجتاهما وأرملته الشّابّة والرّضيع يأتون كلّ يوم لرؤيته ويظلّون واقفين صامتين ساعات

Twitter: @ketab_n

بأكملها تحت المطر أو في أشعّة الشّمس وأنظارهم شاخصة إلى المحبوس في الجدار. وكانت عيناه المفتوحتان المُغَلّفتان بذلك الغلاف الكلسيّ الرّقيق تعكسان التمرّد والصّمت «واللّاعودة»، وهي أمور خاصّة بالموت وحده. وخلال الأسبوع الأوّل شاخ والداه قرناً من الزمان، وبدا أخواه وزوجتاهما، وحتّى أولادهم، وقد تغضّنت وجوههم إلى الأبد. وأما هو فكان يتأمّل المشهد الماثل لعينيه من وراء الستار الكلسيّ الذي يجعله أشدّ بُعداً من طَيْف، وقد استند إلى عَقْد الجِسْر وكأنّه مستند إلى وسادة من حَجَر مصقول جدّاً.

وعندما كان يقلّ عدد النّاس أو لا يبقى أحد موجوداً، كان «جيلوش» الأبله يقترب من مكان التضحية. وكان يظلّ هناك بلا حراك منزعجاً من جرّاء عدم فهمه ما جرى. وكان يدنو بخطى وئيدة من المحبوس في الجدار وينزلق بجانبه ويهمس له بصوت كظيم: «مرّاش، مرّاش»، على أمل أن يستطيع ذاك سماعه، وبعد أن يكرّر هذه العمليّة عدّة مرّات، كان يبتعد خافض الرّأس.

لم تأتِ العجوز «أيكون» إلّا بعد أسبوع، وقد وقفت ساعات طِوالاً أمام العَقْد الأوّل من غير أن تنبس بكلمة. فلم تكن تلك الوقائع لتجد تفسيراً حتّى في تجربة أكثر النّاس تقدّماً في العمر. ومرّت أيضاً بضعة أيّام، وعندها أدرك الجميع العبء الثقيل الذي يمثّله رجل لم يُدفن، لا بالنسبة إلى أسرته وحسب، وإنّما إلى المنطقة بأسرها. ولقد كان ذلك أمراً يعدو سُنّة الحياة والموت ويترجّح بينهما، مثل جِسْر، من غير أن يميل إلى جهة أكثر من ميله إلى الأخرى. فلقد حُشِر إنسان في العَدَم مخلّفاً شَكْلَه وكأنّه لباس مَنْسيّ هناك في الأعلى.

كان أناس من كلّ نوع، فضوليّون من القرى البعيدة، وحجّاج حطّوا الرّحال في الأنزال على الطّريق الكبرى، وغرباء أثرياء مع

Twitter: @ketab_n

زوجاتهم في رحلة استجمام عَبْر العالم، يأتون من كلّ حدب وصوب لرؤية الميت الذي لم يُدفن (كان ذلك النّوع من الرّحلات قد درج في الأيّام الأخيرة بعد حركة إصلاح الطّرق النَّشِطة).

وكانوا يتوقّفون أمام العَقْد الأوّل مذهولين، شاحبين بلون الشّمع، وسط طنين التعليقات، متحدّثين بلغاتهم، مُلَوّحين بأيديهم بإشارات يمكن الحَدْس بما إذا كانت لمباركة السّاعة التي قادتهم إلى هذا الجِسْر أو لِلَعْنها. ووحده كان «مرّاش زينيبيش» في مواجهة هَرْهَراتهم بارداً، فارغاً، غير مبالٍ، كلسيّاً، يبدو وكأنّه متلفّع بنقاب عروس.

كان الوقت بداية شهر نيسان (أبريل). وكان الجوّ صحواً والأعمال تتواصل فوق الجِسْر أشدّ حماسة من أيّ وقت مضى. حتّى ليُمكن القول إنّه كان للميت تأثير مُنَشِّط. وكان العَقْد الثاني قد انتهى كلّيّاً وبدأ العمل في بناء قبّة الثالث. وأخذ القوم يرفعون أقواس العَقْد المركزيّ. وكان وَحْل العام الماضي الذي لطّخ كلّ شيء في الجوار قد اختفى. والآن أخذت الحجارة المنحوتة تنشر غباراً دقيقاً بَهيَّ البياض. ولقد غطّى ضفّتَيْ نهر الـ «أُويان»، وكان يتلألأ أحياناً في اللّيالي المُقْمِرة، وكأنَّه يتراءى في حُلُم.

في ضوء القمر المنبعث من إحدى ليالي نيسان (أبريل) تلك، عثرتُ مصادفةً وأنا مارّ فوق الضفّة على المسؤول عن الورشة. وكان قد مرّ زمن طويل من غير أن أراه. وتبادلنا بعض الأحاديث التي لا نفع منها ولا محتوى لها وكأنَّها لخفّتها ريشاتٌ تتلاعب بها الرّيح على هواها. وفيما نحن نتحدّث وكأنّنا في حالة تهويم ساورتني بغتةً رغبة في الإمساك به من قَبّة طيلسانه وحشره إلى دعامة الجِسْر والصّياح في وجهه: إنَّ هذا النّظام الجديد الي حدّثتني عنه ذات يوم، النظام

Twitter: @ketab_n

الخاصّ بكم، نظام المصارف والفوائد الذي ينبغي على حدّ زعمكم أن يتقدّم بالعالم ألف عام، غارقة أسسه في الدّم، شأنه شأنُ النظام البربري في غابر الأزمان، مثلُه مثلُ نظام الاسترقاق والعبوديّة، مثلُ نظام الأمراء والسّادة اليوم، مع فارق تقريبيّ هو أنَّ هذا الدم يسيل في حسابات، في أرقام. أتسمعني، في أرقام! إنَّ حساباتكم جروح رهيبة تبدو بَضَعاتُ الرّماح والفؤوس بإزائها وكأنَّها خدوش أحدثها أطفال. يا لَتَعْس العالم الذي نَسَلَكُمْ!

* * *

Twitter: @ketab_n

(٤١)

كان الرّبيع مُنْقَشِعاً مثلما كان يندر أن يكون. وكان ذَوْب الثّلوج قد ضخّم نهر الـ «أُويان» اللّعين. وعلى الرّغم من انتفاضه وتجدُّد شبابه فإنّه لم يُهاجِم الجِسْر قطّ. وبدا وكأنّه يتجاهله. فكان يُزْبِد ويُقارع بُرهةً أكداس الحجارة عند قَدَمَيِ الميت، ثمَّ ما إن يتجاوزهما حتّى يهدأ وكأنّ رؤية المحبوس في الجدار قد طمأنته. ووحده كان يبقى فوق أعرافه الباردة انعكاسٌ خبيثٌ هازئ.

تواصلت الأشغال طَوال الرّبيع وفي بداية الصّيف بوتيرة مُحكَمة. وكان العَقْد الثالث قد أوشك على الانتهاء وبُدِئ على الجانب الأيمن ببناء نوع من كوّة مستديرة كان ينبغي أن تؤدّي عمل قنطرة إضافيّة صغيرة مساعِدة في حال ارتفاع المياه.

وكانت تُدوّي على امتداد الجِسْر أصواتُ المطارقِ ومقاطعِ ناحِتِي الحجارة وصريرُ العجلات التي كانت تنقل الدّفعات الأخيرة من المِلاط.

ووسط تلك القعقعة المتواصلة وزمجرات النّهار كان «مرّاش زينيبيش» يقف مُتَكَلِّساً دائماً كالعهد به، عجيبَ البياض، ولم يكن في وسع أحد أن يقول ما إذا كان لحمُ وجهه يتحلّل تحت قناعه الكلسيّ أم إذا كان جامداً كالمِلاط.

وواصل أقرباؤه زيارته، إلّا أنَّهم أخذوا يُقَصِّرون مداها على

Twitter: @ketab_n

الدّوام. وإذ خرجوا بعد مدّة على عمليّة الحبس في الجدار من الاضطراب الشّديد الذي أغرقتهم فيه غرابة الوقائع فقد أدركوا أنَّهم لم يكونوا قد بَكَوْه كما تقضي العادة المُتَّبَعة. وحاولوا إصلاح الأمر، غير أنَّ ذلك كان مستحيلاً. فقد كانت العَبَرات تتوقّف في حلوقهم، شأنُها شأنُ الكلمات التي كان ينبغي أن تُصاحِب بكاءهم. وعندها سَعَوْا إلى استئجار نادبات محترفات لتأبينه، إلّا أنَّ هؤلاء بَدَوْنَ أيضاً عاجزاتٍ على الرّغم من تدرُّبهنّ على هذه المهمّة. وانتهى الأمر بذويه إلى أن يستخلصوا أنّه «لم يكن يريد أن يُبكى».

كان قد انقضى بعض الوقت على موت «مرّاش»، وكان ذووه يعتقدون تارة بأنَّ من حسن حظّهم أن يروه حيّاً على هذا النّحو أمام نواظرهم، ولكنّهم كانوا يعتقدون تارة أخرى بأنَّ ذلك كان أشدَّ اللّعنات وطأة. وعلى أيّ حال فإنّهم لم يعودوا يزورونه الآن قطُّ مجتمعين. فكانت زوجته، وعلى ذراعها وليدها، تأتي وحدها ثمَّ تبتعد ما إن ترى الآخرين يقتربون. وبدأ النّاس يقولون إنَّ خِصاماً أصمّ قد نشأ بينهم بشأن اقتسام التّعويض.

وفي تلك الأثناء ظلّ زوّارٌ قادمون من بعيد، ولا سيّما من الأثرياء الأجانب، يتقاطرون بقصد رؤية المحبوس في الجِدار لا غير، الأمر الذي أحدث، على ما يبدو، تزايُداً شديداً في مداخيل «نُزُل الرويبريْن».

* * *

Twitter: @ketab_n

(٤٢)

انقضى الصّيف بسرعة مُذْهلة؛ أو، إذا كنّا أكثر دقّة، فإنّ أحرّ أيّامه كان ينبغي، على ما يبدو، أن تمتدّ أوّل الأمر إلى ما لا نهاية مثل غناء الجنادب في إبّان القيظ، بيد أنَّ ريحاً باردة هبّت فجأة وما لبث أن ظهر أنّ الخريف كان متربّصاً هناك خلف الآجام.

وامتلأت السّماء بالغيوم. وإذا بالكونت يترك بصحبة أهله الجبل الذي ذهب للاستجمام فيه ويعود إلى قصره. وأخذتْ تُسمع حول الجِسْر ليلَ نهارَ فرقعة المطارق. وكانت الأشغال تدنو من نهايتها. والعمل جارٍ لإتمام تقويسة الكوّة الجانبيّة إلى اليسار.

وذات يوم من بدايات شهر أيلول (سبتمبر) حضرتْ بنت الكونت لرؤية المحبوس في الجدار. ولم أكن قد التقيتها من زمن بعيد. وكانت قد كبِرت. وأصبحت شابّة ممتلئة أنوثة. وخشيتُ ألّا تحتمل رؤية الضحيّة. غير أنَّها كانت تتأمّلها من غير أن يبدو أنّها شديدة الاضطراب. وعندما ابتعدتْ فوق الحصباء، مضعضعةً حزينةً بعض الحزن، التفت النّاس ينظرون إليها. وكانوا يعرفون أنَّ هذه الفتاة النحيلة كانت السّبب في البرودة الكبيرة التي نشأت بين سيّدنا والباشا التركيّ القويّ الذي أصبح حديثاً، ويا للأسى، جارَنا.

وربّما كان السّبب في أنّه لمّا تَشِعْ بحقّها أيّة حكاية من حكايات الأمير الفاتن الذي يقطع سبعة جبال لزيارة المحبوبة، كما هي الحال

Twitter: @ketab_n

غالباً فيما يخصّ شوابّ الطبقة الراقية، أنّها كانت قد كبِرت في هذه الأيّام الكدِرة التي كانَتْها الفصول الأخيرة. إلّا أنَّها إذا كانت قد جُنِّبتْ مثل تلك الثرثرات فإنّه قد أُطلق عليها بالمقابل لقبٌ مخيف ما لبث أن ذاع وانتشر، لستُ أدري كيف، في كلّ مكان على وجه التقريب. فقد دُعِيتْ «خطيبة التركيّ». ولقد تساءلتُ في كثير من الأحيان عن أصل هذا اللّقب الغريب العجيب. ولم يكن هناك قطّ ما يُسوِّغه. بل إنّه كان مخالفاً للحقيقة، ومع ذلك فقد استمرّ في الذيوع. وما كان أحد ليستطيع الجزم بما إذا كان قد أُنشئ بقصدٍ حسنٍ أو سيّئ. لقد كان قائماً بينهما، وربّما كان ذلك هو السّبب في أنَّ التسمية كانت تبدو صائبة وخاطئة في آن. فلم تكن الشّابّة قد زُوِّجت «تركيّاً»، وعلى الرّغم من كلّ شيء فقد أُلصق بها هذا اللّقب وكأنّ جوهر القضيّة، في مثل حالها، أنّها كانت قد طُلبت للزّواج حتّى وإن رُفض الطّلب. وعليه فقد كانت تُدعى «خطيبة التركيّ» لسبب واحد هو أنّهم كانوا قد طلبوها للزّواج، وأنّهم كانوا قد طمعوا فيها عن بُعد، ولوّحوا لها من هناك بـ «البُرْقُع» الشرقيّ الأسود الذي يُغطّون به وجوه نسائهم.

كان ذلك اللّقب يُرْعِشني. فلماذا لا يزالون يستخدمونه، ولماذا لم ينطفئ على الفور ما دام «الأتراك» قد جوبهوا بالرّفض؟ وماذا يكون هذا التهديد المتواصل وتلك الخطبة التي لا تزال تُدوِّم في الهواء؟ وكنت أقول لنفسي أحياناً إنّ هذا اللّقب طارئ ومضحك أكثر منه مخيفاً ولا يستحقّ بعدُ أن أفكّر فيه، غير أنّ الشكوك كانت تُحْدِق بي من جديد بعد لحظة. فماذا لو كان هذا كلّه يتجاوز مصير الكونتيسة الشّابّة؟ ماذا لو كان التفكير الشعبي قد توقّع بشكل مشوَّش، مشوَّش جدّاً، ما سيكون عليه مصير جميع فتيات «أربيريا»؟ إنَّ هذا اللّقب

Twitter: @ketab_n

الفظيع ما كان ليُولَد، بل ما كان ليستمرّ على قيد الحياة، من غير دافع عميق.

تلك كانت الأفكار التي تراود خاطري، وكنت أقول لنفسي: آه! لو كانت هذه المسكينة الصّغيرة الرّقيقة جّداً، الشفّافة تقريباً، تعلم ما يدور في خلدي وهي تتنزّه بصحبة مربّيتها فوق الحصباء!

* * *

Twitter: @ketab_n

(٤٣)

إنّها لأيّام كدِرة. فلم نكن نملك أيّ خبر دقيق عن قاعدة «أوريكوم» العسكريّة القريبة من «لورييه». وكانت الشّائعات تسري بأنّ «كومنين» العجوز قد مات، غير أنّ نبأ موته ظلّ طيّ الكتمان بسبب الوضع الذي جدّ في القاعدة. وكان يُهْمَس كذلك بطائفة من الأمور الأخرى. فقد كان يُقال مثلاً إنّ السلطان التركيّ الأعظم قد اعتزل في أعماق «آسيا الصّغرى» للتأمُّل. ولربّما كان ذلك هو السّبب في أنّ «الأتراك» كانوا يبدون وكأنّهم نائمون.

لم تكن تصدر عنهم أيّة أمارة بأنّهم أحياء. غير أنّه لُمِحَ مجدّداً ذات يوم، وكان ذلك في نهاية الأسبوع، درويشٌ يَخْبِط في السّهل البارد وحيداً تتلاعب به الرّياح. وكان يسير حافياً، مثل جميع الدراويش الهائمين، يكسوه الغبار حتّى لتكاد أطماره تختلط بشعره. ولقد توقّف فوق الجُرُف الرمليّ أمام عَقْد الجِسْر الأوّل وسجد أمام المحبوس في الجدار وأخذ يتلو بصوتٍ خاشعٍ مصطبغٍ بحزنٍ شديدٍ صلاةً إسلاميّة. ثمّ انطلق إلى حيث لا يدري أحدٌ عَبْر السّهل الكبير.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٤٤)

قبل بضعة أيّام من انتهاء الأشغال أُصيب أحد المُناظِريْن على العمّال، البدين على وجه الدقّة، بمرض نادر ومُخْزٍ، فقد سقط كلّ شعر جسمه. ولقد حُبس في كوخ وجُهد في كتمان أمر مرضه، إلَّا أنّه استحال إخفاؤه. فقد كان «جيلوش» الأبله يدور طوال النّهار حول الكوخ ويُلْصِق عينه بشقوقه لتمييز شيءٍ ما، ويمضي إلى الجهة الأخرى ويهزّ رأسه وكأنّه قد فهم ما الأمر. وقالت العجوز «أَيْكون» إنّ الأمر لم يكن إلَّا بداية عقاب الربّ. ففي رأيها أنَّ الذين كانوا قد شرعوا في هذا العمل اللّعين سوف يفقدون شعرهم في البداية، ثمّ عيونهم فأنوفهم فآذانهم، وينتهون برؤية لحومهم تتساقط إرباً إرباً.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٤٥)

ذات صباح من منتصف تشرين الأوّل (أكتوبر) استيقظ الجِسْر وقد تمّ إنجازه. وقد كان من المعروف جيّداً أنَّ الأشغال كانت في مرحلتها النهائيّة، إلّا أنَّ مرأى الجِسْر في ذلك الصّباح كان أمراً لا يُصدَّق، أمراً شبه خارِق. خلف السقّالات. وكان قد بُدئ عند الأصيل بنزع التقويسات كما تُنزع أوراق كوز من الذُّرَة، واستمرّ هذا العمل طَوال اللّيل. ولقد برز على حين غِرّة أبيضَ عارياً بين المياه الكدِرة والسّماء الملبَّدة مع إيماضة النّهار المُرْبدَّة. وأخذ يندفع بجسارة فوق الهاوية ويتمطّى ويبدو وكأنّه يتحفّز، بيد أنّه ما إن اجتاز وسط المجرى حتّى ترك نفسه يسقط من جديد وكأنّه يطير في حُلُم، ويَحْني قليلاً ظهره ليذهب فيلامس الجُرُف الآخر بجبهته. وكان جميلاً مثل رؤيا. وكانت مسام حجارته تبدو وكأنّها تَسْفِط النّور وتمجّه مثل مسام جسم حيّ. وإذ كان مُلْقىً على هذا النّحو وسط عِداء اليابسة والماء فقد بدا أنّه يحاول منذ الآن التحالف مع العناصر المحيطة. وقد سبق أن بدت أعراف الأمواج المُزْبِدة أكثر لطفاً تجاهه، وكذلك أشجار الرّمان البرّيّة فوق التلّة المقابلة وغيمتان صغيرتان عند الأفق. لقد كانت جميعها تجهد للتوافق وإيّاه.

ووقف النّاس مفتونين فوق الضفّتين لتأمّله صامتين وكأنّه جَمالٌ مُذْنِب. وكانوا جميعاً مسحورين، ولم يُسَرِّح أحد بصره قطّ نحو قافلة

Twitter: @ketab_n

البنّائين الذين كانوا يتأهّبون للرّحيل. ولم يكن في الإمكان التصديق بأنَّ هذه الكومة غير المتجانسة من الرّجال والأشياء، هذا الحشد من الرُّحَّل، هذه القذارة، هذه الحُثالة من المُفَأْفِئين والنصّابين والسكّيرين والحُذْب والأشرار والقتلة، قد أبدعوا هذه الرائعة الحَجَرِيّة.

وعلى مَبْعَدة منه، وكأنّهم أحسّوا بأنّهم قد غَدَوْا فجأة غرباء عنه، كانوا يجمعون أسمالهم وأدواتهم ودِلاءهم ونقّالاتهم ومطارقهم والسكّاكين التي ارتكبوا بها جريمتهم. وشرعوا في تحميلها فوق عربات أو بغال، وساورني وأنا أنظر إليهم يُحَوِّمون للمرّة الأخيرة نفادُ صبرٍ حادٌّ بأن أراهم يرحلون بأسرع ما يمكن ويُغادرون الجِسْر، ورجوت ألّا يسمع أحدٌ بهم أبداً.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٤٦)

رحل آخر موكب من مواكب البنّائين بعد ذلك بأسبوع. وقد رصّوا فوق عدد من العربات آلاتهم الثّقيلة وعدّة براميل ضخمة من الصّفيح ورُكاماً من الخُردة والسّلاسل والعجلات التي كانت تَصُرُّ صريرَ طاحون ضخم. ووُضِع فوق عربة مغطّاة المُناظِرُ المريضُ الذي حُجِب عن أنظار النّاس لأنّ مرآه لم تكن لتحتمله، على ما يُقال، عيونُ البَشَر.

كان الشّاطئ المحصب المهجور يشبه رُكاماً من الأنقاض. وكانت الأكواخ نصف المهدَّمة المجرَّدة من كلّ ما كان بالإمكان الإفادة منه، وقِطع الألواح الخشبيّة والأدوات المُهَشَّمة المُبَعْثَرة في كلّ مكان، وبقايا المِلاط الجافّ، وأكوام شظايا الحِجارة، وحُفَر الكلس الممتلئة بالماء إلى منتصفها، كان ذلك كلّه يُزعج النّظر. وكان الشّعور يعتري بأنَّ ضفّة نهر الـ «أويان» اللّعين قد تشوّهت إلى الأبد.

لقد لاحظ البنّاء، على ما يبدو، أنّني كنت أُتْبِعه نظري فانفصل عن رفاقه، قبل أن يصعد إلى عربته، وجاء للقائي. ولم يقل لي شيئاً. واكتفى بإخراج قطعة من الورق المقوّى من جيبه وخربش عليها بقطعة رصاص بعض الأرقام وشرع يشرح لي، لست أدري لماذا، توازُنَ القوى التي تتيح للجِسْر أن يظلّ منتصباً. وأخذت أرمش بعينيّ لأنّني

Twitter: @ketab_n

لم أكن أملك أيّة معرفة بهذا الموضوع، في حين كان يعتقد أنّه يشرح لي، بكلام غير مترابط، ما هو الجِسْر وما هو مضادّ للجِسْر.

تحرّكتْ آخر عربة في وقت متأخّر من الأصيل فخيّم على هذه الأمكنة سكون مخيف. وكانت لا تزال في يدي قطعة الورق المقوّى التي أعطانيها البنّاء، وقد امتلأت بالسّطور والأرقام التي ربّما كانت تُبيِّن حقّاً ما القوى التي تُبقي الجِسْر واقفاً والأخرى التي تسعى إلى هدمه. ولقد كانت الشّمس الغاربة تُرسل آخر أشعّتها المتلألئة فوق العقود، وأخذ الجِسْر يُذكِّر بحُلم غير معقول كانت تتقاسمه الضفّتان. وإذ كان أبيض ومتروكاً للزّمن فقد أوحى بعُزلة قصوى وهو يصهر بأطرافه الحجريّة فريسته الوحيدة، «مرّاش زينيبيش»، الرّجل الذي مات ليُخْمِدَ الخِصام بين اليابسة والماء.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٤٧)

ما الذي جرى إذن؟ لقد رحلوا وأقام في هذه الأمكنة هدوء لا يُطاق. الصَّمَم. الفراغ. حتّى ليُقالُ إنَّ الطّاعون كان قد حلّ.

لم يكن أحد يمرّ فوق الجِسْر؛ حتّى ولا «جيلوش» الأبله. وكانت الرّياح الباردة تكنسه وتدخل وتخرج تحت عقوده، ثمّ كانت هي الأخرى تسقط ويبقى هو عندئذٍ معلَّقاً في الهواء غريباً عديم النفع. وكانت الخُطى البشريّة التي كان ينبغي أن تسعى إليه، تتحاشاه وتتوارى على الجانبين وفي الخلف، بعيداً، وتبحث عن مَعْبَر في الماء الضَّحْل، وتُنادي المُعَدِّيَ بصوت خافت، بل كانت على أُهْبَة اجتياز النّهر سباحةً، والتجمُّد في عُبابه، والغَرَق، على أن تضع قَدَماً فوقه هو. فلم يكن أحدٌ ليريد السّير فوق الميت.

على هذا النّحو انقضى الأسبوع الأوّل فالثاني. وكانت كتلة الحَجَر بالانتظار. وكانت العقود الجَوْفاء تتّخذ مظهراً ضارياً. وكان الظَّهْر المقوَّس الذي يعلوها بانتظار الإحساس بالأَقدام تحطّ فوقه، أَقدامِ أيّ كان، أقدامِ رُحَّلٍ أو نساءٍ أو جحافلِ برابرةٍ أو مواكبِ أعراسٍ أو أفرادٍ مجهولين أو جيوشٍ إمبراطوريّةٍ تسير ساعتين أو أربعاً أو أربعاً وعشرين أو مئة، بلا توقّف.

إلّا أنَّ أحداً لم يكن يمشي فوقه. وكان هناك ما يدعو إلى

Twitter: @ketab_n

الانفجار: أَمِنْ أجل هذا بُذل ذلك القدر من العناء، وتصبّب ذلك القدر من العَرَق؟

في الأسبوع الثاني انهمر المطر بلا توقّف تقريباً. ولقد ابتلّ الجِسْر أيّاماً بشكل محزن بالأمطار.

بعدها توقّف المطر من جديد وبرد الجوّ واربدّ. وعلى هذه الشاكلة بدأ الأسبوع الثالث. وأخذت ريح مُعْوِلة تزحف على بطنها فوق الأرض الحزينة المُقْفِرة. وعَصْرَ يوم الثلاثاء رُؤِي ذئب يجتازه بخطى خفيفة كما في الحكاية. ولم يُصدِّق النّاس أعينهم (مال بعضهم إلى الظنّ بأنّ شخصاً قد مرّ وهو يرفع شِعار آل «سكوريه» الذي يُعلَم أنّه يحمل ذئباً)، وكان الوحش قد انسلّ بسرعة إلى البعيد حيث كانت الرّيح، التي سكنت على ما يبدو، تُرسل عُواءه.

كانت الأيّام التي تلت صمّاء فارغة. وكان جوٌّ مُرْبَدٌّ يُغلِّف كلّ شيء كما في عشيّة نهاية العالم. وذات عصر اقتربت العجوز «أَيْكون» من الجِسْر يتبعها جَمْع صغير. ولم يكن أحد يعلم ما تنوي فعله. وتوقّفت أسفل الجِسْر تحت الكوّة الجانبيّة اليُمنى وألصقت يدها، ثمَّ أُذُنها، بالحجارة. وبقيت على هذه الحال وقتاً طويلاً، ثمّ أزاحت رأسها بيدها وقالت:

«إنّه يرتعش».

واستعدتُ ذكرى الرّجل الذي كان قد أُصيب في ذلك الحين بالصَّرْع. فلقد نَقَل بالفعل ارتعاشه إلى الجِسْر.

وكان عدد كبير من النّاس يَظنّون بأنَّ الجِسْر سوف يتداعى من تلقاء نفسه. وكنت في بعض الأحيان أُخرِج قطعة الورق المقوّى التي كان البنّاء قد خربش عليها الأرقام العجيبة وأُراقبها ساهماً وكأنّي أسعى إلى اكتشاف سبب غمّه.

Twitter: @ketab_n

ولقد وددت لو كان البنّاء حاضراً لرؤية هذا المشهد الحزين.

إلّا أنَّ ذلك الهِجران للجِسْر الذي بدا أنّه ينبغي أن يدوم مئة عام توقّف على غير انتظار في ٢٩ تشرين الأوّل (أكتوبر). فما لبثت الطريق والهضبة المجاورة والشّاطئ المحصب أن دوت فجأة بطقطقة كانت تسلخ جلود الآذان. وهرع النّاس مذعورين لرؤية ما كان يجري. وكان ركب من العربات الحديديّة يتقدّم على الطّريق القديمة في صفّ طويل أسود شبيه بزاحفة حديديّة. وكان يقترب من الجِسْر. وبقينا نحن جميعاً فوق الضفّة جامدين وكأنّنا بانتظار مُصيبة. وإذ سرّعت العربة الأولى مشيتها فقد أخذت تتسلّق المنحدر الخفيف. وفي اللّحظة التي أوغلت فيها عجلاتها الحديديّة فوق الأرض المبلّطة بدأ الهدير الصادر عنها يتغيّر: فقد انطلقت فوق الكوّة المفتوحة قبل العَقْد الأوّل، ثمّ فوق الميت، ثمَّ أبْعَدَ فأبْعَدَ فوق بداية العَقْد الثاني باتّجاه منتصف الجِسْر. وتبعتها عربة صغيرة ثانية فثالثة، وهكذا دواليْك حتّى كان رتل طويل من العربات المحمَّلة كلّها بالبراميل السّوداء الممتلئة زفتاً.

كان ذيل الموكب ما يزال فوق الجِسْر حين عُلِم ما كان ينقله وإلى أين يتّجه. لقد كان ينقل زفتاً وحسبُ، ويتّجه إلى قاعدة «أوريكوم» العسكريّة في «لورييه».

وتبعناه بأنظارنا طويلاً عائدين بها بين الفَيْنة والفَيْنة إلى الجِسْر الذي لم يكن قد أُصيب بأيّ ضرر.

وما إن مرّت القافلة الشرّيرة ـ قافلة الزفت والقَطِران كما دعاها أحد نزلاء «نُزُل الروبيريْن» ـ حتّى بَلَغَنا موتُ «كومنين» واحتلالُ جيوش «بالشا الثاني» الإمارة بأسرها، وفي الوقت نفسه نصف «أوريكوم». ولقد انطلق كُونْتُنا تواكبه حاشيته في طريقه لتشييع جنازة

Twitter: @ketab_n

الأمير العجوز. ولا بدّ أنّه كان لا يزال سائراً عندما بَلَغَنا كالرّعد بَعدَ البرق نبأٌ آخرُ أشدُّ إيلاماً: لقد أخلت الحامية البيزنطيّة آخر الأمر نصيبها من القاعدة البحريّة لتسليمها إلى الحامية التركيّة.

لقد كانت الحرب، على ما يظهر، على أبوابنا.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٤٨)

رجع الكونت من دفن «كومنين» أشدّ تجهّماً ممّا كان عند رحيله. وكان جميع سادة «أربيريا» تقريباً قد حضروا المأتم، غير أنَّ نعش الأمير العجوز الذي كانوا قد اجتمعوا حوله ـ ربّما للمرّة الأخيرة ـ لم يجعلهم على ما يبدو أكثر تعقُّلاً، ولا دعاهم في نهاية المطاف إلى التفاهم لإنقاذ البلاد.

خيّم الصّمت من جديد عندنا في أثناء تلك الأيّام. ولم يصلنا أيّ خبر من أيّ مكان. وكانت بداية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) تلك باردة. ومن جديد لم يمرّ أحد فوق الجِسْر. وذات يوم قطعت، ويا للغرابة، بعض النعاج المذعورة العَقْدَ الأوّل؛ وأرادت أن تعود على أعقابها، لكنّها إذ لم تتمكّن من ذلك فقد أخذت تركض واجتازت الجِسْر بأسره، في حين كان الرّاعي المصعوق ينادي المُعَدِّيَ ملوِّحاً بعصاه من فوق الجُرُف ويُفلح، لا أدري كيف، في بلوغ الضفّة الأخرى.

كان ذلك هو الحدث الوحيد الذي يستحقّ الذكر في بداية تشرين الثاني (نوفمبر) تلك. وكانت بعض الأعشاب قد نمت على أكداس الحجارة والرّمل المتروكة على جانبَي الجِسْر. وقد لوّحت الطبيعة بالأمارة الأولى على أنّها كانت تستعدّ على مهل، على مهل جداً، ولكن بتصميم، لأن تمحو عن وجه الأرض كلّ أثر لوجود البنّائين على ضفّتيْ نهر الـ «أُويان» اللّعين.

Twitter: @ketab_n

كانت الأيّام تمرّ متثاقلة خدِرة بفعل البرد ترافقه عند أطراف السّماء غيوم ثابتة صمّاء، صمّاء. وقد ظللنا على حالنا من انقطاع الأخبار. وكان يُقال إنّه يتمّ التحضير في بلد بعيد جدّاً اسمه «الصّين» لبناء سور كبير. وكان الطّاعون قد اكتسح مجدّداً قلب «أوروبا».

وفي الحادي عشر من هذا الشّهر كُلِّفْتُ القيام بمهمّة على حدود أراضينا في المناطق المتاخمة للإيالة التركيّة. وكنت بعد الانتهاء من عملي أقف ساعات بأكملها ناظراً إلى عتبة الإمبراطوريّة التركيّة. ولم أكن أستطيع التصديق بأنّها كانت أمامي. بل كنت أردّد في نفسي كالأحمق: «إليك، ها هوذا يبدأ على بُعد خطواتٍ ما يُسمّى الفضاء الإسلامي». وكانت «آسيا» تبدأ على بُعد خطوتيْن منّي. وكان في ذلك ما يدعو حقّاً إلى الجنون. فهي التي كانت قبلاً أَبْعَدَ من بلاد الحكايات تقوم الآن هنا، تحت أنفنا. ولم يكن في وسعي مع ذلك أن أصدّق. ولا كان في وسع أحد أيضاً أن يصدّق أنّهم كانوا قد اقتربوا إلى هذا الحدّ. لقد كانوا هنا، غير أنّ الوقائع والتّواريخ ومقاييس الطول والزّمن كانت تذوب وكأنّها في الضّباب. وكانت تساور المرءَ أحياناً رغبةٌ في الصّراخ: «أين هم؟» وفي الأسفل كانت التُربة ما كانته على الدّوام، وفي الأعلى كانت سماء الشّتاء تغطّي الأرض. ومع ذلك فهنا كانت تبدأ، أو بالحري تنتهي، «دولتهم» العملاقة التي تمتدّ من صحارى «الصّين» القارّيّة.

لم أكن قد رأيت طوال مهمّتي على حدودنا حيّاً يُرزق، لا دَيْدَباناً ولا قاطِناً. وكانت الأراضي تبدو مهجورة تماماً. وفي اللّيلة الأخيرة فقط (آه! ما كان أحسن لو لم أبقَ تلك اللّيلة) سمعتُ موسيقاهم. وما زلت حتّى الآن لا أعلم من أين كان ينبعث ذلك الغناء وتلك الأنغام، ولا مَنْ كان يغنّي ولا لماذا. فربّما كانوا دراويش متشرّدين فاجأهم

Twitter: @ketab_n

اللّيل عند الحدود، أو موظّفين من «دولتهم» جاءوا من عاصمتهم يُثبّتون علامات الحدود، أو حتّى فريقاً من الموسيقيين المتجوّلين، وذلك ما لم أتوصّل إلى معرفته. ولا أعملتُ في الحقّ الفكرَ في هذا الشّأن. فقد كنت أستمع إلى غنائهم المصحوب بآلات موسيقيّة مجهولة وأشعر بضيق لم أشعر بمثله قطّ من قبل. وكان ضِيقاً مديداً لم تكن تخترق مداه أيّة أَمارة من أَمارات الأمل، ضِيقاً ذا أبعادٍ لاإنسانيّة. فماذا كان ذلك النُّعاس، بل بخار الحشيش المنتشر بشكل غِناء؟ لقد كانت الأصوات تتمطّى وكأنّها تُهوّم، وكان كلّ شيء معكوساً وشائِهاً. وقلت لنفسي إنّها موسيقاهم، صوتهم النّافذ إلى الأعماق. وكان يترامى إلينا وكأنّه مدفوع بدخان مُنوِّم. ولسوف تتوقّف الأقدام التي كانت ترقص مع تلك الأصوات كما يحدث في كابوس. فيا للهول!

ورجعت من تلك الرّحلة خائراً.

لم يحدث حتّى منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) ما يستحقّ الذكر باستثناء ظهور غريق ذات صباح على صفحة المياه. ولقد راح يرتطم عند قَدَمَيِ المحبوس في الجدار (كان مستوى المياه قد بلغهما الآن) ودار على نفسه وضرب الميت بمرفقه ضربة أخرى وكأنّه يريد أن يقول له: «كيف حالك يا أخي؟» وانزلق بعيداً على غير هدى.

والذين رأوا ذلك ورغبوا في حكايته لغيرهم اصطدموا بنظرتهم غير المصدِّقة. وكان هؤلاء يقولون: «لكنّ هذا حدث في العام الماضي، وقد رأيناه معاً، ألا تذكرون؟» ثمّ كان الفريقان يظلّون هنيهة مشدوهين. وعند أسفل الجِسْر كان الزّمان يبدو وهو يدوِّم، شأنُه شأنُ المياه، وكأنّه قد بقي في مكانه.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٤٩)

أيقظوني ذات صباح قبل الفجر ليخبروني أنّ أناساً كانوا يَعْبُرون الجِسْر. وسألت نصف نائم:

- ومَنْ يكونون؟

- آل «بالتا». جميع أُسْرتهم مع ثورهم الأسود. احفظنا يا ربّ!

واقتربت من متراس صغير يُطِلّ على الجِسْر. لقد كنت متأكّداً من أنَّ أقداماً بشريّة سوف تطأه ذات يوم، إلَّا أنّني لم أكن أظنّ أنّ ذلك سيحدث بهذه السّرعة. وكنت أقول لنفسي إنّه لن يحدث قبل الرّبيع القادم.

وسأل صوت مرتجف صادر من أسفل: «هل تراهم؟».

وأجبت: «أجل».

كانوا في تلك الأثناء يجتازون منتصف الجِسْر، كلُّهم أجمعون، صغاراً وكباراً، وقد ارتَدَوْا عباءات سوداء، باستثناء الثّور.

وسألت وكأنّي لا أتوجّه إلى شخص بعينه:

- ولكنْ إلى أين يذهبون؟ وما الذي دهاهم؟

وأجاب الصّوت من الأسفل:

- إنَّ لديهم بالتّأكيد ما يشغل بالهم.

ما يشغل بالهم، ذلك ما دار في خلدي. تُرى ماذا يكون داخل تلك العباءات السوداء التي كانت تتحرّك كالحُزَم المسحورة عند الأفق.

Twitter: @ketab_n

وقال أحدهم في الأسفل: «نجِّنا يا ربّ».

وصلت العباءة الأولى، أكبرُ العباءات، تلك التي كانت تجرّ الثّور، إلى الضفّة الثانية من غير أن تُصاب بأذى. وتبعتها العباءات الأخرى الأصغر فالأصغر. وقال أحدهم: «لقد عبروا».

كانوا ينتظرون أن أقول شيئاً، أن أوجّه ـ ربّما ـ لعنة إلى المتطاولين، أو ـ على العكس ـ أن أباركهم. وربّما كانت تساورهم منذ زمن رغبة محجوبة لا تُقاوَم في أن يَعبُروا هم أيضاً الجِسْر. وكنت أنا نفسي قد شعرت بشكل غامض برغبة من هذا النّوع وكنت في كلّ مرّة تساورني فيها أقوم بالتمشّي طويلاً مُتعِباً ساقيَّ وكأنّ تلك الرّغبة صادرة عنهما وأنا أريد معاقبتهما عليها.

وانقضت أيّام. وكان آل «بالتا» الذين أُرغموا على بيع ثورهم لسدّ حاجات ماسّة قد عادوا في ذلك المساء عابرين الجِسْر وفي قلوبهم كلُّ مرارة العالم. وكان الحديث دائراً في كلّ مكان عن عبورهم، غير أنّه لم يكن في تلك الأحاديث ضغينةٌ ولا لوم. وإنّما زفرة حزن لا غير.

في تلك الأثناء مرِض المُعَدِّي «أُوك». وكان قد أصابه برد، ولم يكن في الأمر ما يدعو إلى الدّهشة. وعندما عُلِم الخبر دهش الجميع، على العكس من ذلك، من ألّا يكون البرد قد أصابه قبل ذلك وهو يعيش ليل نهار فوق تلك العبّارة المتداعية ورجلاه في الماء أكثر من أربعين عاماً.

ومات بعد ذلك بقليل ودُفن في اليوم نفسه. ولقد حدث موته ذات عصرٍ مكفهرّ كان الـ «أُويان» فيه مضطرباً والعبّارة المسودّة المربوطة إلى سلاسل رصيف الرّكوب تتقافز فوق المياه وكأنّها جوادٌ شَعَر بموت سيّده.

Twitter: @ketab_n

لم تستبدل شركة «عبّارات وأطواف» المُعَدِّيَ بغيره. بل لقد بدا أنَّها كانت قد نسيت تماماً العبّارة المهجورة. وكان العمود الذي يحمل لافتة الصّفيح التي عليها اسمها وأسعار العبور قد التوى، وأُلفي مقلوعاً ذات يوم.

وشرع النّاس شيئاً فشيئاً يسلكون الجِسْر إلى الضفّة الأخرى وكأنّ موت المُعَدِّيَ كان البشير المنتظَر. وعَبَر بعد آلِ «بالتا» آلُ «الرّؤوس الصهباء»، وبعدهم صاحب «نُزُل الروبيريْن» ومعه أخو زوجته وكلاهما ثَمِلان تماماً. وسلكه في اليوم نفسه حاجّان غريبان، وفي الثّامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سلكته قُرابة الظّهر زمرة كبيرة من آل «سترس» من ضمنها امرأة حُبلى.

أمّا آل «زينيبيش» فلم يعبر أحد منهم الجِسْر. ولم يكن كثير من المسنّين قد آلَوْا على أنفسهم وحَسْبُ ألّا يحطّوا أقدامهم فوق ظهر الشيطان، بل لقد عبّروا عن إرادتهم في أن يُرمى جثمانهم في الماء على أن يُنقل عن ذلك الطّريق إلى المقبرة القائمة على الضفّة الثانية.

وفي تلك الأثناء فسدت العبّارة المهجورة التي كانت لا تزال مربوطَة إلى رصيف الركوب القديم وتفتّتت بسرعة مذهلة. وكان ذلك عجيباً حقّاً، ولا سيّما إذا فُكّر في أنّها أدّت وظيفتها طوال عشرات السّنين من غير أن تحتاج يوماً إلى إصلاح؛ بيد أنّه كفى أن يتخلّى عنها البشر لحظة لكي تتحلّل.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٥٠)

في الثّالث من كانون الأوّل (ديسمبر) شُهد في الصّباح الباكر «دان متيشي» يعبُر الجِسْر مع أبنائه وبصحبتهم عنزة. وتبعه رجال من عشيرة «جورج» كانوا ذاهبين إلى القاضي. ثمّ حضر «جيلوش» الأبله (تقدّم حتّى منتصف الجِسْر ثمّ رجع على عقبيه). وفيما بعدُ مرّت عشيرة «ولكانتان» بأكملها تقريباً في جلبة من وقع الحوافر والضحك، وقد ركبوا ظهور البغال في طريقهم لإقامة عرس عند آل «بوزيزيز». ولم تلبث بنات «دودا» أن تَبِعْنَهم، كما تبعهم «جيلوش» الأبله الذي سلك الجِسْر مرّة جديدة وهو يمشي متعرّجاً. وقرابة الظّهر مرّت على التّوالي زُمرتان من المجهولين، ثمّ رجل سكران قادم من «نُزُل الروبيريْن». وقُبيل الغسق عَبَر الجِسْر في مثل لمحِ بالبصر «ستانيس سترس» مُمتطياً جواداً كُمَيْتاً، وبعده مرّ بريدٌ غريب. وعندما دخل اللّيل أخذت عمليّات العبور تتباعد، وعلى أيّ حال فقد كانت الظُلمة تُحول الآن دون رؤية العابرين. فقد كان أقصى ما يستطيع المرء اكتشافه إذ يميّز أطيافهم هو ما إذا كانوا ـ تبعاً لمشيتهم ـ ألبانيين أو لا، بيد أنّه كان يعجز عن تبيُّن سبب مرورهم؛ وما إذا كانت الدّوافع إليه دوافعَ فرح أو حقد أو مصلحة أو موت.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٥١)

لم تمرّ نَسَمة واحدة فوق الجِسْر خلال مئة ساعة. فقد كان المطر ينهمر. وكان الأفق ضائعاً في الضّباب. وكان يتردّد أنَّ طاعوناً عظيماً يجتاح «أوروبا» الوسطى.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٥٢)

كان قد مرّ زمن لم يقدِّم فيه أصحاب الجِسْر دليلاً واحداً على أنّهم أحياء يرزقون عندما ظهر في نهاية الأسبوع اثنان من موفوديهم فوق بغلتيْن. ولبث الجميع مذهولين لمرآهما وكأنّهم أمام شَبَحَيْن. وأخذ النّاس يُتْبِعونهما أنظارهم مستغربين أن يروهما لا يزالان من هذا العالم.

ولم يُبديا أيّ فضول بإزاء حالة الجِسْر، بل لم يُلقيا نظرة إلى الميت القائم عند العَقْد الأوّل، وإنّما انصرفا على الفور إلى العمل الذي جاءا لأجله. فقد حفرا حفرة عند كلّ طرف من طَرَفَيِ الجِسْر وزرعا فيها عموداً من الحديد ثبّتا فيه لافتةً من الصفيح شبيهةً باللّافتات التي كانت تستخدمها فيما مضى شركة «عبّارات وأطواف». وبدا واضحاً أنّ الأمر يتعلّق بجدول بأسعار العبور. وكان تعرفةً مفصّلة تُبيِّن ما ينبغي دفعُه عن كلّ شخص وكلّ رأس من الماشية وكلّ عربة على حِدَتها. وقد لُحظت حسومات على عمليّات العبور الجماعيّة فيما يخصّ، على التّوالي، العائلات أو العشائر أو القُطعان أو المواكب.

كان النّاس ينظرون إلى اللّافتة وكأنّهم يتفكّرون: لقد كنّا نحتال للمرور على مرأى من الجميع، حسناً! لم يبقَ أمامنا الآن إلّا أن نتخفّى!

لم يرحل الرّجلان بعد نصب اللّافتتيْن، بل أقاما في كُوَيْخ

Twitter: @ketab_n

المُعَدِّي المهجور الذي كانت الشّركة قد اشترته، على ما يُقال، قبل مدّة قصيرة. وأخذ المُقْتَرحان لجباية رسم العبور يتناوبان على الخدمة.

وأغرب ما في الأمر أنّ عدد عابري الجِسْر لم ينفك في تصاعد بعد أن أصبح عبوره لقاء أجر.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٥٣)

حمل راهب بُنْدُقيّ في طريقه إلى «بيزنطة» أنباء سيِّئة أخرى عن قاعدة «لوريبه». فقد استُبدل بمرسوم إمبراطوري تركيّ اسمُ «أوريكوم» القديم باسم «باشليمان». وكان اسماً مُريباً خارجاً عن المألوف معناه بالتّركيّة: المرفأ المُشْرِف على المرافئ، أو أوّل المرافئ، أو باشا المرافئ. وبديهيّ تماماً مغزى دور قاعدة عسكريّة سُمِّيت على هذا النّحو. فلقد كانت باباً كبيراً فتحه «العثمانيّون» في خاصرة «أوروبا».

الأيّام كدِرة للغاية. ففي «لوريبه» تجري كلّ يوم حوادث بين الجنود الألبان والأتراك على خطّ التماسّ الفّاصل بين منطقتي القاعدة.

ما إن رحل الرّاهب حتّى غدوتُ في حالة يُرثى لها من الخَوَر. وأخذت أتنزّه طويلاً على ضفّة نهر الـ «أويان» اللّعين، وكانت أفكاري غائمةً على شاكلته. وكانت تعاودني بين الفينة والفينة تلك الموسيقى الجنائزيّة التي كنت قد سمعتها قبل بضعة أسابيع عند الحدود. لقد كانوا يريدون غَلَّ أقدامنا بتلك الأصوات المتثاقلة التي تشبه السّلاسل. ولسوف يُقيِّدون بعدَ أقدامنا، أيدينَا ثمّ روحنا.

كان يُسْتَرْوَح جوع «الدّولة» العثمانيّة الكبرى. وإنّه لَجَشَعُ السّهوب البعيدة. تحويل تُرْبة «أربير» إلى أرض آسيويّة. وكنت أدعو أحياناً قائلاً من خلال زفرة: أيُّها الربّ العظيم لا تَتَخلّ عنّا.

Twitter: @ketab_n

لقد قُدِّر لأرض «أربيريا» أن تكون على مفترق التّاريخ بين «الغرب» و«الشّرق». وكانت الحسابات ومعدّلات الفائدة تتشابك في الغرب فوق قعر من الدّماء. وكان الدّم في الشّرق يصبغ بحُمرته الأفق.

كانت تلك هي الأمور التي أخذت تراودني وأنا أرود الضفّة. وأخذ اللّيل يخيّم. وكان الجِسْر قد جمد فوق النّهر شبيهاً بأيّل تحجّر بغتة في قفزته. وكان بارداً كئيباً. وشعرت على حين غِرّة أنّه كان في خطّه المنحني قليلاً، في عقوده، في كُواه، في وحدته، ما يشبه الترقُّب. وقلت في نفسي: ما الذي تنتظره أيّها الشّيء الحَجَريّ؟ أشباح بعيدة؟ جيوشٌ إمبراطوريّة، جلبةُ أقدام مجهولة الاسم تسير عشرات، بل مئات السّاعات، من غير توقّف؟ لِتَنْزِلْ عليك اللّعنة!

* * *

Twitter: @ketab_n

(٥٤)

تتوالى الأخبار متلاحقة مشؤومة كالغيوم في الفصل الرديء. فلقد شنّ الأتراك هجوماً دبلوماسيّاً كبيراً. وقَبِلتْ أربعُ إمارات أخرى على أطراف «أربير» التبعيّة للسّلطان. وأكثر من نصف سكّان «البلقان» خاضعون الآن للهلال العثماني. وثلاثة من الأمراء الألبانيين الأحد عشر قد أقسموا أيضاً يمين الولاء. والجيوش التّركيّة تقوم في جميع مناطق «البلقان» بمناورات ضخمة لإخافة الأمراء والدوقات الذين لم يخضعوا بعد. والسّادة البلقانيّون والألبانيّون والكروات واليونانيّون والصِّرْب والرومانياويّون والمقدونيّون والسلوفينيّون يُرسلون بُرُدَهم باتّجاه «البندقيّة» أو باتّجاه «تركيّا» وبالاتّجاهين معاً أحياناً لاختيار أقلّ الولاءيْن كُلْفَةً. وكونت آل «سكوريه» يتأهّب لإرسال وفد إلى السّلطان. وآل «موزاكا» يبدون أيضاً مُزَغْزَعين. ولا يزال الموقف الذي سيتّخذه آل «دوكاجن» مجهولاً. فقد انسحبوا إلى المناطق العالية كما يفعلون عادة في مثل هذه الظّروف، وهناك خلف الضّباب يتفكّرون ويتأمّلون. ولا يدرك بعض أسياد «ألبانيا» أنّهم برفعهم العَلَم الأبيض يُهيِّئون لموت البلاد وموتهم. وإنّي كثيراً ما أفكّر في أمر العودة، العامَ الماضيَ، إلى القنص في «مَفازة الذّئب» عندما كان الثّلج يتساقط شبيهاً بغبار السّلام فوق أسلحة الضّيوف وشعاراتهم.

وكثيراً ما أتذكّر ضحكات الكونتيستيْن على ضفّة نهر الـ «أُويان»

Twitter: @ketab_n

اللّعين ودعابتهما وزقزقاتهما بشأن اسم «عبد اللّات»، واغتياباتهما ابنة حميّهما «كاترينا»، «الملِكة» ـ كما كانتا تدعوانها ـ بتهكّم لأنّ زوجها، «شارل توپيا»، كان يطمح إلى عرش «ألبانيا» الشاغر منذ زمن بعيد. وكنت أتذكّر هذا كلّه وأَحْذَر هاتين المرأتيْن الناعمتيْن حَذَري السَّيْف التركيّ المعقوف المسمّى «ياتاغان». وكنت أخشى الهدايا والمنسوجات الحريريّة الّتي لم يكن الأتراك يضنّون بها وكانتا هما تطمعان فيها أشدّ الطّمع.

كان كونت «كاشنييه» ودوق «تيپيلين» قبل ذلك بقليل أوّل من والى السّلطان وقدّم له آيات التّبجيل، وكانا يسخران الآن من الذين سبق أن تنبّأوا لهما بأشأم التنبُّؤات. وأخذا يقولان: «لقد تنبّأتم لنا بأنّ «التركيّ» سيدمّرنا ويعرّينا ويُذِلّنا، إلّا أنّنا لا نزال سيّديْ أراضينا. وقصورنا لا تزال حيث كانت، وشعاراتنا وشرفنا وأراضينا مصونة. وإذا كنتم ترتابون في ذلك فتفضّلوا للتأكّد بأمّ عينكم!».

هذا ما كان ذانِك السيّدان وزوجتاهما ـ على الأخصّ ـ يكتبونه إلى سائر الأسياد. والحقّ أنّ الأمر كان، بمعنى من المعاني، على ذلك النّحو. فلم يَكُنِ «التركيّ» قد مسّهما. ولا تغيّر شيء باستثناء تفصيل بدا، مع ذلك، بلا مغزى ولا أهميّة. وكان يتعلّق بالتّاريخ المؤرِّخةِ به تلك الرّسائل. فلم تكن مؤرّخة بالعام ١٣٧٩م، وإنّما ـ وكان ذلك أحد متطلّبات العثمانيين النّادرة ـ بالعام الهجريّ ٧٥٧.

المناكيد. لقد عادوا القهقهرى ستّة قرون وكانوا يضحكون ويمزحون. فيا للهول!

* * *

Twitter: @ketab_n

(٥٥)

لم يسبق قطّ أن استقبل «نُزُل الروبيريْن» هذا القدر من المسافرين. ومن هناك كانت تترامى إلينا على كلّ حال الأخبار القائمة في معظمها ويا للأسى، ونادراً ما كانت تحمل ومضة أملٍ ما.

لقد رفض آل «موزاكا» مجدّداً الخضوع للعثمانيين الذين طلبوا منهم ذلك للمرّة الثّالثة. وفي مقابل ذلك أعلن البارونان «غروپا» و«ماترانغا» تبعيّتهما. وحذا حَذْوَهما سيّدان صِربيّان عند الحدود وأميرٌ كرواتيّ آخر. وكان قرار «نقولا زكاري» وأتباعه لا يزال مجهولاً. وكذلك قرار آل «كاستريوت». وتسري شائعات عن تحالف مُحْتَمَل بين الكونت الكبير «شارل توپيا» و«بلشا الثاني»، أقوى سيّديْن، غير أنّ ذلك قد يكون أُمنية عزيزة أكثر منه حقيقة. فمطامح «توپيا» في العرش تشكّل عقبة شبه كأداء أمام ذلك التّحالف. وربّما كان «شارل توپيا» قد أرسل، حسب شائعات أخرى، رُسُلاً لعقد حلف مع ملك «هنغاريا». وأمّا «بلشا العجوز» فقد انسحب إلى الجبال، شأنُه شأنُ آل «دوكاجن»، وقد بلغ فوق ذلك من الكبر ما لا يسمح له بقيادة حملة. وعلى الرّغم من كلّ شيء فإنّ معظم الأسياد الألبانيين، منفردين كانوا أو متلاحمين في زُمَر من اثنين أو من ثلاثة في بعض الأحيان، يتأهّبون للحرب. ولقد دعا سيّدنا الكونت «سترس» جميع أتباعه وفرسانه لأن يكونوا متأهّبين.

Twitter: @ketab_n

إنَّ الحرب هنا، أمامنا في كلّ مكان، وينبغي أن يكون المرء أعمى كيلا يراها. وهناك عالَم شرّير، يعلوه هلال، يهدِّد «الدّولة» الألبانيّة. وذلك الجِرْمُ السّماوي المشؤوم، الهلال، يغدو الآن بلون الدم بعد أن كان قبلاً بلون العسل. وهذا القمر الخاصّ بالسّهوب الآسيويّة مؤذٍ، مؤذٍ جدّاً، غير أنّه لا يُعَتِّم أن يكون الخميرة التي سَتَرُبُّ مصيرنا. ولسوف تدرك بلاد «ألبانيا» كثيراً من الأمور على ضوئه المشؤوم. وستُفْقِدها المصيبة ليونتَها وتُدمِيها، إلّا أنّها سوف تُعلي شأنها أيضاً. وستُعلِّمك سنواتٌ من المأساة والدم أرضَ «أربير» ما لم تستطع أن تُعلِّمها إيّاه عقود من الحرث وشجر الزيتون. يقول الكتاب المقدّس: «لِيَكُنِ النورُ» لكنْ طالما استُبدلتْ هاتان الكلمتان في وجداني على الدّوام بـ: لِتَكُنْ أرضُ «أربير!» لأنَّ قلبي يُحدِّثني بأنّ «ألبانيا» سوف تتكوَّن وتتبدّل معالمها مرّات كثيرة قبل أن تَثْبُت إلى الأبد على سطح الكُرة.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٥٦)

لقد ازداد الجوّ برودة. وشرع يتساقط مطر ممزوج بثلج دثّر كلّ شيء بِمِعْطف رماديّ.

وفي الإيالة المجاورة قام جيش تركيّ عرمرم بمناورات جديدة.

وذات صباح شوهد دَيادِبة من جيشنا يخفرون طَرَفَيِ الجِسْر. وكانت علاقات سيّدنا بالإيالة المجاوِرة قد ازدادت سوءاً.

ظلّ الحرّاس المسلّحون طَوال ذلك اليوم واللّيلة التي تلت بالقرب من اللّافتتيْن الحاملتيْن تعرفة العبور. وكنّا قد ظننا أنّه تدبير مؤقّت، إلّا أنّنا رأينا بعد ثلاثة أيّام أنّهم أصبحوا، على العكس، أكثر عدداً.

إنَّ أنباء مُقلِقة تترامى إلينا من كلّ صوب وكأنّها النَّعيب. فـ «بلشا العجوز» قد فقد بصره تماماً. وأصاب اللّيل عينيه قبل أن يصل إلى روحه. والمرء على حقّ إذا قال: «ليتني لا أرى من أيّ سِنْخ سيكون الغد». ومع ذلك فإنّ غيوم الحرب تحوِّم فوق رؤوسنا.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٥٧)

في تلك الأثناء ظلّ عدد من المسافرين الذين كانت رحلتهم تمرّ بهم من هنا، أو من الميسورين المتنزّهين في أرجاء الدنيا، يأتون في معظم الأحيان لزيارة الجِسْر وكأنّهم لا يعلمون شيئاً ممّا كان يجري في كلّ مكان تقريباً من بلاد «البلقان». ولقد ازداد ذلك الاهتمام في هذه الأيّام الأخيرة إلى حدّ أنَّ صاحب «نُزُل الروبيريْن» كان قد ألصق على بابه بلاغاً بأربع لغات يقول فيه: «يُؤمِّن النُّزُلُ الذهابَ إلى الجِسْر الشّهير المثلَّث العقود مع الرّجل المحبوس في الجدار والإيابَ منه بالأسعار التالية (وتتبع الأسعار بعُملات مختلفة)».

وكانت عربة يقودها أربعة خيول توصِل النزلاء إليه وتعيدهم منه مرّتين أو ثلاثاً في اليوم، وأكثرَ من ذلك من حين إلى حين في معظم الأوقات. وكانوا يروحون ويغدون فوق الجِسْر وعلى الضفّة زُمَراً صغيرة، مثرثرين ضاجّين كما هم المسافرون بشكل عام، وينحنون ناظرين بفضول إلى كلّ شيء، الأعمدة والكُوى الجانبيّة، ويُحدِّقون طويلاً في العَقْد الأوّل حيث المحبوس في الجدار. وكان يُسْمَع هناك هرير كلامهم المتعدِّد اللّغات، الموحَّد الشّكل البالغ في استمراره حدَّ الإعياء. ولقد خالطتُهم غير مرّة للاستماع إلى ذلك اللّغط البشري الشبيه بلغط البارحة والمُبايِن له في آن. حتّى لكأنّ الزّمن قد توقّف عن السّيرورة. وكانوا يتحدّثون عن الأسطورة والجِسْر، ويسائل بعضهم

Twitter: @ketab_n

بعضاً، ويخلطون بين الأسطورة القديمة وموت «مرّاش زينيبيش»، ويجهدون في تفسير الوقائع، بيد أنّهم لا ينفكّون يزدادون تخليطاً إلى أن تحضر عربة «نُزُل الروبيريْن» حاملةً فريقاً جديداً من المتنزّهين فتعود بهم. وكان كلّ شيء يبدأ من جديد: أَهُمْ ثلاثة إخوة أولئك الذين بَنَوا الجِسْر؟ لا، ذلك ما تتحدّث عنه الأسطورة القديمة. وقد بنى هذا الجِسْر ثريٌّ يُدير شركة للجسور والطُرُق ويهتمّ بتجارة الزّفت. ويملك مَصْرِفاً في «دورييس». ولكنّ الأمر يتعلّق مع هذا بأسطورة مَدارُها كيف حُبِس ذلك الرّجل في جدار؟ أَظُنُّ أنّه ليس في الأمر غموض يا سيّدي. فلقد ضحّى بنفسه لتهدئة عفاريت المياه لقاء تعويض مُجْزٍ دُفع إلى أُسْرَته. آه، إنّ الأمر يتعلّق إذن بعفاريت المياه وأنت تزعم مع ذلك أنْ ليس من علاقة بالأسطورة؟ أنا لا أقول إنّه ليس هناك علاقة، ولكنْ... الدّافعُ هنا هو التعويض الموعود.

عندها كانوا يتناقشون في أمر التعويض ويُطلقون صَفَرات الإعجاب بضخامة المبلغ ويحسبون نصيبَ الأرباحِ العائدَ إلى أفراد الأسرة من الجِسْر ويُحوِّلون المبالغ إلى عُمُلات إماراتهم ثمَّ إلى ما يقابلها بالدوكات الذهبيّة الخاصّة بمدينة «البندقيّة». وهكذا كان الحديث يبتعد بهم من غير أن يشعروا عن الجِسْر ليتركّز على سعر صرف العُمُلات بوساطة مصرِف «دورييس»، وعلى تقلّباتهم تبعاً للفصول والمواسم والوضع السّياسي، وكذلك على الأسعار بشكل عام. وتستمرّ التعليقات في مجراها حتّى يقترب من الزُمرة شخص أتى مُتأخِّراً فيسأل: «لكنّهم قالوا لنا إنَّ المحبوس في الجدار امرأة في حين أنّه رجل». وكان صوتان أو ثلاثة تجيبه قائلة: «أوه، أما زلتَ في الأسطورة القديمة؟».

وكان كلّ شيء يعود سيرته الأولى.

Twitter: @ketab_n

(٥٨)

قلّ فجأة عدد المُتنزِّهين. ثمّ اختَفَوْا. وخيّم سكون أصمّ على المكان مدّة من الزّمن. وكنّا نجهل تماماً ما يدور في العالم إلى أن كان يوم ترامى فيه إلينا في غمرة هذا الجَزَع نبأ مروِّع: لقد أنجز «الأتراك» العمل المصيريّ لإنزال اللّعنة بـ «أوروبا».

وجمعتُ تفاصيل ما جرى واحداً واحداً من أفواه مختلفة لأشخاص كانوا قد شهدوا الوقائع بأنفسهم أو قُدِّر لهم أن يكونوا في الجوار. من خلال مختلف الشّهادات شرع الحَدَث في التشكُّل داخل رأسي شبيهاً بهيكل مُظْلِم.

كان ذلك قد حدث بعد ظهر السّابع عشر من كانون الأوّل (ديسمبر) قرب الحدود التركيّة الألبانيّة وتمّت مراسمه وفاقاً لجميع النُّظُم المدوّنة في حوليّات «الدّولة» العثمانيّة. وكانت قوانين الحرب التركيّة تقضي بأن يقوم المسؤول في الجيش عن استنزال اللّعنات من السّماء قبل نشوب كلّ معركة بلَعْنِ البناء المُهاجَم، حِصْناً كان أو سوراً أو مجرّد خندق.

ويُقال إنَّ الحوليّات القديمة قد حدّدت بوضوح، بل بإرفاق النصّ برسم، الحركة المُعَبِّرة عن اللّعْن: يفتح اللّاعن راحتيه ثمّ يمدّهما إلى الأمام وكأنّه يدفع بلعنته المشؤومة للتحليق، ويكرِّر تلك الحركة ثلاث مرّات قبل أن يُولِي ظهرَه الغَرَضَ الملعون على هذا النّحو.

Twitter: @ketab_n

وتتحدّث حوليّاتهم عن لعْن قِلاع وإيالات متمرِّدة، بل و«دول»، قبل البدء بالهجوم، إلّا أنّه ليس هناك مثال عن لَعْن قارّة بأسرها. وربّما كان ذلك بالضبط هو السّبب في أن يبدو «مُستنزِل اللّعنات الأوّل في الدولة»، ويدعى «سُؤْل الله»، وكان قد بلغ أقصى أطراف الإمبراطوريّة مساء السادس عشر من كانون الأوّل (ديسمبر)، مُضطرِباً بعض الشيء.

كان الجوّ على ما يبدو مُلَبَّداً رطباً، وكان السّهل المنبسط أمام المئذنة المؤقّتة المنصوبة لتلك الغاية بالضبط مُغَلَّفاً بالضباب.

رقي مستنزل اللّعنات إلى أعلى المئذنة الصغيرة ذات السّهم المصنوع من الصّفيح وظلّ مُسَرَّحاً بصره بعض الوقت باتّجاهنا، في المكان الذي تبدأ فيه حسب اعتقادهم «أوروبا» اللّعينة. وكان الجوّ رديئاً جدّاً بالفعل، وقد انعدمت الرؤية على وجه التقريب بفعل الضّباب. ولزمت زُمرةُ الموظّفين الكبار التي رافقت «سُؤْل الله» إلى الحدود صمتاً مُطْبِقاً. وعند أسفل المئذنة كان مؤرِّخ الإمبراطورية قد فتح سجلاً ضخماً لتدوين وقائع الحَدَث.

مدّ «سُؤْل الله» يديه أمامه مُخْرِجاً إيّاهما من رُدنيْ مِعطفه الجامع بين الصفتيْن المدنيّة والعسكريّة. وعند ذلك لاحظ الجميع ضخامةَ راحتيْه الخارجةَ على المألوف، إلّا أنَّ ذلك لم يُدهش في الحقيقة أحداً لأنّه لم يكن من العبث أن يكون «مُستنزِلَ اللّعناتِ الأوّل» في الإمبراطوريّة.

تأمّل بادئ الأمر يديْه ثمّ رفعهما أمام وجهه إلى مستوى جبينه بعد أن حوّل عينيْه عن الأفق المُرْمَدّ الكئيب. وأخذت راحتاه تَشْحُبان. وأبقاهما برهة على هذا النحو حتّى أصبحتا بيضاويْن بياضَ الأموات،

Twitter: @ketab_n

ثمّ مدّهما بخشونة إلى الأمام وكأنّ الشرّ كان فقاعة صابون يدفع بها بعيداً.

وكرّر تلك الحركة ثلاث مرّات. وبذلك تمّ طقس اللّعْن.

ونزل بصمت يتبعه رَكْبُ مرافقيه. ورافقه الموظّفون الآخرون إلى عربته التي كان باباها يحملان شعار «اللّعْن الأكبر» الإمبراطوري. وصعد في عربته مع أعوانه، وفي حين كانت المركبة تجري في البرد الشتوي نحو المناطق التي قَدِم منها، كانت اللّعنة تحلّق بالاتّجاه المعاكس نحونا، نحو أراضي «أوروبا». وكانت تذهب (أو بالحري تأتي) عَبْرَ الضّباب وكأنّها طائر مشؤوم أو نذير أو استهلال أو حُلُم قاتل.

إليكم كيف هي الأمور. فأيّ بلد هو أيّها الربّ العليّ ذلك البلد الذي ربطنا به القَدَر. وأيّة أمارات يُرسل إلينا مع الرِّياح. وماذا سيُرسل إلينا بعدُ؟

* * *

Twitter: @ketab_n

(٥٩)

استمرّ تساقط الرذاذ. وكان كلّ ما يحيط بنا مُبَلَّلاً ومُرمَدّاً. وأخذت أمواج مُهوِّمة من الضباب تلتفّ وتنفرد على التّوالي فوق السّهل. وبدت كتل الضباب في بعض الأحيان وكأنّها تتسمّر في مكانها. واختفى كلّ شيء أو كاد، القرى المحيطة والمفازة والجِسْر. وفي تلك الأيّام المكفهرّة كان المحبوس في الجدار يبدو أكثر قُرباً وأشَدّ بُعداً في آن. ولربّما توقّع المرء رؤيته بين آونة وأخرى خارجاً من حالة ازدواجه للتوجّه إلينا حيّاً بين الأحياء، أو للابتعاد على العكس من ذلك ميتاً ينضمّ إلى الأموات.

وأمّا عناده للبقاء بين تيْنك الحالتيْن غيرَ مُصمِّم على أيّ منهما فكان بمثابة همّ مُقيم لنا جميعاً. ولم يكن في الوسع القول بما آلى إليه لحمه في الداخل، غير أنّ قناعه الكلسيّ كان هو إيّاه، وكانت عيناه مفتوحتيْن مثل فَصّيْن من اليَشَب، وظلّ خدّاه وشفتاه وذقنه على الحال نفسها. وكانت تظهر في بعض الأحيان بقعة من رطوبة كالتي تترك أثراً ما إن تجفّ على طلاء جدار.

وازدادت زيارات أقربائه ندرةً. وأصبحوا الآن أربع زُمَر متنافرة بعد أن كانوا زُمرتيْن اثنتين؛ فهناك زوجته وطفلها، وأبوه وأمّه، وكلّ من أخويْه على حِدَته. وكان الخلاف على اقتسام التعويض قد تفاقم خلال الخريف، وتبيّن أنَّ الدعوى التي كانوا قد أقاموها طويلة الأجل بشكل مُقْنِط.

Twitter: @ketab_n

وكانت كلّ زُمرة من هذه الزُّمَر تأتي للوقوف أمام القناع الكلسيّ حاملة دوافعها وهمومها. وكانت العينان المفتوحتان ترسلان النظرة نفسها على الدّوام، وكان الزوّار يظنّون أنّهم سيتفاهمون بشكل أفضل مع الكلس في المرّة القادمة. المرّة القادمة... ولست أستطيع أن أتخيّل كم من الوقت سوف يدوم ذلك التنبُّؤ؛ وإذا دام طويلاً فكيف سيتغيّر على مَرّ السنين. فلسوف تُلقي عليه الفصول غُبارَها وتَحُتّه الرّيح على مهل، على مهل جدّاً مثلما تَحُتُّ الكون، وسيعرف هو، «مرّاش زينيبيش» المُزَوَّد الآن بهذا القناع الواقي الذي أوقف تقدُّم العمر، الشيخوخَة في نهاية الأمر. إلّا أنَّها لن تأتيه من فصل إلى فصل، ولا من سنة إلى سنة، كما تأتي الشيخوخة البشريّة عادةً، وإنّما من قرن إلى قرن. وإنّي لأحدّثه في سرّي أحياناً قائلاً: «أيّها المرّاش المنكود، أيّة مصائب سيُكتب لك أن تشهد، فالمستقبل يبدو لي مشحوناً بالكوارث». غير أنّه يَحْدُث لي أن أقول له أيضاً: «إنّك لمحظوظ، فسوف تشهد كثيراً من الأمور، لأنّه مهما حدث فإنّي مقتنع بأنّه ليس في وسع أيّ إعصار مشؤوم أن يكنس «أربير» الكبير عن سطح الكرة، بل سيخرُج، على العكس، من كلّ محنة من المحن أقوى وأشدّ».

* * *

Twitter: @ketab_n

(٦٠)

وقعت الحادثة في الثالث والعشرين من كانون الأوّل (ديسمبر)، السّاعة الرابعة عصراً. وقد جرى كلّ شيء في طَرْفة عين، غير أنّ الحادثة كانت من تلك الحوادث القادرة على شطر الزمن شطريْن. فمنذ الثالث والعشرين من كانون الأوّل (ديسمبر) والزّمن ليس واحداً في أحاديث كلّ أحد. فهناك الحِقبة السّابقة على الحادثة والحِقبة اللّاحقة.

فقُبيْل السّاعة الرّابعة (كان المرء يشعر في ذلك النّهار المكفهرّ بأنَّ السّاعة كانت الرابعة على الدّوام منذ الصّباح)، قُبيْل اللّحظة الحاسمة إذن، لم يكن يُلْحَظ أيّ نذير بالخطر في أيّ مكان. وكان السّهل المُنْبَسِط خلف نهر الـ «أُويان» اللّعين يبدو وكأنّه ينوء بضباب شهر كانون الأوّل (ديسمبر). وكلّ شيء كان يبدو مختلِطاً عندما برز فجأة من بين كُتَل الضّباب الباردة ـ الله يعلم كيف ـ سبعة فرسان. وكانوا يقتربون مُسرعين بعَدْوٍ عجيب لم يكن بخطّ مستقيم وإنّما كان مؤلَّفاً من انعطافات كبيرة وكأنَّ إعصاراً غير مرئيّ يدفع بخيولهم من جانب إلى جانب على التوالي. وعندما اقتربوا بما يكفي لتمييز خُوذاتهم ودروعهم أدرك النّاس أنّهم كانوا فرساناً أتراكاً.

وإذ رآهم دَيادِبتنا قادمين نحو الجِسْر، وكانوا يحرسونه من الجهة اليمنى باتّجاه التيّار، فقد تأهّبوا وصالبوا رماحهم. واستمرّ الفرسان

Twitter: @ketab_n

يقتربون بعَدْوهم المتعرِّج العجيب. ومن بعيد صاح فيهم حرّاسنا أنْ «توقّفوا». وكان على الأغراب أن يتوقّفوا حتّى وإن كانوا مزوَّدين بتصريح بالمرور، وكان أولى بهم أن يفعلوا إذا كانوا قد اجتازوا الحدود بلا ترخيص كما كان يفعل غير واحد في الأيّام الأخيرة. بيد أنَّ الفرسان رفضوا أن ينصاعوا.

لقد ساور شهودَ الحادثة من بعيد شعورٌ بأنّهم سوف يشهدون جَلَبة خرساء. فقد أفلح تركيّان في شقّ طريقهما والوصول إلى منتصف الجِسْر يتبعهما واحد من حرّاسنا. وسقط ثالث عن حصانه وتلاحم حوله الألبان والأتراك في قِراعٍ بالقنا محموم. وإذ نجح أحد الأتراك في الإفلات فقد انطلق خلفَ دَيْدَباننا الذّي كان يطارد الاثنيْن الآخريْن، في حين اصطدم حرّاسنا الذين هرعوا من طرف الجِسْر الآخر بالأتراك في التحام جديد.

تمّ ذلك كلّه، كما قلتُ، بصمت مدهش، أو هذا هو على الأقلّ ما ساور القوم من شعور، ربّما لأنّ هدير النّهر كان يكتم جميع الأصوات. مرّة واحدة فقط (آه، لا أزال الآن أرتعد وأنا أفكّر في ذلك) مرّة واحدة إذن انبثق صوت من تلك الضوضاء الصّامتة. ولم يكن مع ذلك صوتاً بالضبط، بل «كْرا» منفصلة، أو عويل فظيع خارج من حَنْجَرةٍ غير بشريّة. ثمّ كانت هناك أيضاً معركة الأطياف تلك، وذلك السّباق من منتصف الجِسْر إلى طَرَفه الأيمن، والرّجوع إلى الوراء لحمل جثمان سقط، وكومة من الرّماح، وفي نهاية المطاف صدّ الأتراك وفرارهم بالاتّجاه الذي قدِموا منه نحو كُتَل الضّباب وخلفهم حصان بلا فارس لم يكن يكفّ عن الصّهيل.

كان ذلك كلَّ شيء, وقد اختفى الفرسان عند الأفق مثلما ظهروا، وكان بالإمكان الظنّ بأنّ الأمر لم يكن إلّا رؤية من رؤى الخيال...

Twitter: @ketab_n

غير أنّه كان قد بقي أَثَرٌ فوق الجِسْر. فقد كان في وسطه غارقاً بالدّم.

بعد ذلك بقليل حضر الكونت بنفسه إلى المكان. وذرع الجِسْر بخطى وئيدة، وفي حين كان الدَّيادِبة بدروعهم التي خدّشتها طعنات الرّماح يَرْوون له ما حدث. وتوقّفوا عند بُرَيْكة الدّم. ولا بدّ أنّه كان دم الجندي التركيّ الذي أفلح الفرسان الأتراك في حمله معهم. وكان في سبيله إلى التجمُّد وحبيبات الحصى تزيد لألاءه حدّة.

«إنّه دم تركيّ»، ذاك ما قاله سيّدنا بصوت أجشّ مبهور.

ولم يرفع أحد بَصَره. فلقد رأينا ملابسهم الآسيويّة وسمعنا موسيقاهم، وها نحن أولاء ننظر الآن إلى دمهم.

لم يكن بدّ من أن يأتي هذا اليوم. فلقد مضى زمن طويل وهو يتهادى في قافلة الأيّام. وكنّا ننتظره، ربّما من غير أن نفكّر بأنّه سوف ياتي بمثل هذه المباغتة، بصحبة سبعة فرسان برزوا من الضّباب ليعودوا فيغوصوا فيه يتبعهم حصان بلا فارس.

* * *

Twitter: @ketab_n

(٦١)

أخذت الحادثة تلوح أخطرَ فأخطرَ كلّما مرّت السّاعات. وقد عظّم اللّيل جِرْمها بشكل لا يُصدَّق. وكذلك الأيّام التي تلت. وبدلاً من أن يلطّف من خطورة الواقعة ما ساد من هدوء في الأسبوع التالي فإنّه لم يكن منه إلّا أن فاقمها. وأخذت الحركات المشوّشة التي قام بها جنودنا والفرسان الأتراك فوق الجِسْر كما شوهدت من بعيد تتجدّد في خواطر الجميع مبطّأةً وكأنّها تتمّ في كابوس. وبدا الأمر وكأنّه نذيرٌ أوّلُ بالحرب. وكان من البديهيّ الآن أنّ هجوم تلك الدوريّة لم يكن عبثاً. فقد كانت تترامى من كلّ صوب أنباء مُحْزِنة. ففي قاعدة «لوريبه»، وفي إمارة آل «توپيا»، وعند آل «دوكاجن» وآل «كاستريوت» في «الشّمال»، كان الأتراك يفتعلون في كلٍّ مكان موجة من الحوادث. وكان ينبغي أن يكون المرء أقلّ تمييزاً للأمور من «جيلوش» الأبله لكيلا يدرك أنَّ الحرب قد بدأت بشكل من الأشكال.

وإذ كنت أتمشّى مساء الأحد على الشّاطئ المُحصب المُقْفِر (كان الأبله قد تسنّم الجِسْر قبل ذلك بقليل وهو يتضاحك) فقد شعرت بِخَوَر لم يسبق قطّ أن ساورني. وكان القمر يبسط نوره بشكل متفاوت فوق السّهل مُضْفِياً عليه جموداً أشبه بجمود قناع. ولقد كان كلّ شيء شاحباً، وكان كلّ شيء ميتاً، وكنت على وشك الانتحاب قائلاً: «كيف ستتبدّلين إلى «آسيا»، أنتِ البالغة الجمال يا «أربيريا»يَ؟».

Twitter: @ketab_n

وغام بصري، وإذ كنت قد لمحت لطخة الدّم الحائل فوق عنق «مرّاش زينيبيش» فقد اعتراني في هذا الحمّام من نور القمر شعورٌ بأنّي أرى سهولاً برمّتها مبلَّلة بالدّم وجبالاً متحوِّلة إلى رماد. وكنت أرى الجافل التركيّة تَسْحَج العالم لكي تَمُدَّ الفضاء الإسلامي. وأرى النّيران ورمادها، وحطامَ النّاسِ والوقائعِ التّاريخيّةِ المُتَكَلِّس. وموسيقانا ورقصاتنا وتقاليدنا ولغتنا المَهيبة تتسلّق الجبال يطاردها ذلك الـ «لِكْ» الفظيع الذي يذكّر بذيل زاحفة من الزواحف. لغتنا الألبانيّة لاجئة إلى أعلى الجبال بين البروق والرّعود التي ستختلط بها في حين ستبقى السّهولُ تَحتُ خرساءَ. وها هو ذلك القمر الجريح المُشْرِف على كلّ شيء يُنتج أحلاماً خاصّة بالسّهوب الجديبة.

ولسوف يطول هذا اللّيل الذي يقترب. فعقربا ساعته يتحرّكان ببطء، ببطء شديد، إنّه عام ٧٥٥هـ.

وإذ كنت أقلِّب وأعيد هذه الخواطر في رأسي فقد دنوت من غير أن أشعر من العَقْد الأوّل حيث كان المحبوس في الجدار. وكان القمر يُنيره بأَسْطَعَ ممّا في أيّة ليلة أخرى. ولبثتُ برهة بلا حراك محدِّقاً في عينيْه الكلسيّتيْن. وقلت بصمت: «مرّاش زينيبيش» (لم يهزّني قطّ ما دار في خلدي من أنّني كنت أحذو حَذْوَ «جيلوش» الأبله الذي كان يخاطب على هذا النّحو قبل قليل المحبوسَ في الجدار)، وردّدت: «مرّاش زينيبيش»، أنت يا مَنْ مات قبلي ولكنّه سوف يحيا أكثر ممّا حييتُ. . .» ولم أكن أملك القدرة على الإشاحة بنظري عن عينيْه المنطفئتيْن اللّتين غدا بياضهما لا يُطاق. لماذا كنتُ هناك، وماذا كنتُ أريد أن أقول له، وما الذي كنتُ أتوقّعه منه؟ وكان عليّ أن أبتعد بأسرع ما يمكن عن ذلك الغُبار القمريّ، عن مكان التضحية، إلَّا أنَّ ساقيَّ لم تستجيبا لي. لقد كنتُ أشعر بأنَّ حجابَ عينيْه الكلسيَّ

Twitter: @ketab_n

سيسقط بين لحظة وأخرى تاركاً رسالته. وكنت أخمّن على وجه التّقريب تلك الرّسالة. فقد بدا أنَّ عينيْه كانتا تقولان لي: «كلانا أيّها الرّاهب قريب من الآخر. ألا تُحِسّ ذلك؟».

الحقّ أنَّ ذلك بالضبط ما كنت أُحِسّه، وفيما كنت أتقهقر من غير أن تفارقه عيناي (كنت أشعر أنَّها الطريقة الوحيدة التي يمكنني بها الانفصال عنه) فقد أخذت أفكّر بأنَّ عليّ العودة إلى منزلي بأسرع ما يمكن لإتمام تأريخي. لأنَّ الأوقات كانت عصيبة ولأنَّه قد لا يلبث اللّيل الطّويل أن يُخيّم، وعندها قد يدفع أيّ شخصٍ مؤرّخٍ حياتَه لقاء ذلك. وقد يتطلّب هذا التّأريخ، شأنه شأنُ الجِسْر، أُضحيةً، ومَنِ الذي يمكن أن يكون الضحيّة سواي أنا الرّاهب «جون» ابن «جورج أوكاشاما» الذي يدوّن هذه الوقائع وهو يفكّر في أنّه ليس في لغتنا بعدُ شيء مكتوب عن جِسْر نهر الـ «أُويان» اللّعين، ولا عن المصيبة التي تتهدّدنا، وإنّي لأفعل ذلك حبّاً بأرضنا[1].

* * *

---

(١) السطور المطبوعة بالحرف المائل مكتوبة في النسخة الأصليّة بالألبانيّة القديمة حسب النصّ الأوّل المنشور باللغة الألبانيّة، وقد كتبه الرّاهب (جون بوزوك) [هامش المترجم عن الألبانيّة إلى الفرنسيّة]. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

انتشر الخبر عمّا حدث للجِسْر بسرعة لا تُصدَّق.

وأخذ النّاس يتذكّرون المغنّييْن المتجوّليْن ويستعيدون ذكرى ملابسهما ووجهيهما، وجهدوا على الأخصّ في استذكار كلمات أغانيهما التي راحوا يشوّهون قوافيها كما تَحْني الرّيح رؤوس القصب.

كانوا جميعاً يقولون: «مَنْذا الذي كان سيصدِّق أن تتحقّق نبوءاتهما؟ إنّهما لم يكونا مغنّييْن، بل كانا ساحريْن».

أخذت الشائعة تنتشر في الجوار ليلَ نهارَ مُغلِّفةً الجِسْر بسرّ أشدّ كثافة فأشدّ.

وفي اللّيل كان ينصب عَقْده الوحيد الذي أُصيب بوحشيّة فيبدو أَسْوَدَ فوق صفحة النّهر. ومن بعيد كانت المواضع المُصْلَحة والمِلاط والكلس الطريّ اللّذان يغطّيانها تُذكّر بضمادات طَرَفٍ أُصيب بكسور. وبهذا الجسم المشوّه كان الجِسْر يحمل الشّؤم.

ISBN 978-9933352530

9 789933 352530